

أديب العربية

محمد إسعاف النشاشيبي بين المحافظة والتجديد

أ.د. حسن عبد الرحمن سلوادي



أديب العربية
محمد إسعاف النشاشيبي بين المحافظة والتجديد

أ.د. حسن عبد الرحمن سلوادي

الناشر:

عمادة البحث العلمي

جامعة القدس المفتوحة

البالوع - رام الله والبيرة/ فلسطين

ص. ب: **1804**

هاتف: **2411161/2 -2 -970+**

فاكس: **2411163 -2 -970+**

بريد الكتروني: ***sprgs@qou.edu***

تصميم وإخراج فني:

عمادة البحث العلمي

جامعة القدس المفتوحة




أديب العربية

محمد إسعاف النشاشيبي
بين المحافظة والتجديد

أ.د. حسن عبد الرحمن سلوادي






الإهـــداء

إلى جامعة القدس المفتوحة

جامعة الحداثة والمستقبل

انتماءً ووفاءً

المؤلف





مقدمة

أعلنت **جامعة القدس المفتوحة** من خلال اللجنة التي شكلتها للإسهام في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية عام 2009م والتي كان لي شرف رئاستها عن مجموعة من الأنشطة الثقافية والأدبية والإعلامية للاحتفاء بهذه المناسبة، كان من أبرزها إصدار عمل موسوعي من مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات المحكمة خاص بالقدس الشريف، إضافة إلى برنامج تلفازي أسبوعي تحت عنوان: القدس تاريخ وحضارة.

وقد استرعى انتباهي في فترة الإعداد لهذين النشاطين أن كثيراً من الأخوة الباحثين كانوا يتصلون بي مستفسرين عن نتاج بعض الأدباء المقادسة وأعمالهم، وعلى رأسهم أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي وما نشر من كتبه ومقالاته، أدركت آنذاك أن النشاشيبي بالرغم من شهرته العريضة ومكانته الرفيعة، ما زال علماً وموضوعاً يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحليل لكشف أبعاد شخصيته الحافلة بالجليل من الأعمال والأحداث، ومما يثير الأسف –حقاً– أن النشاشيبي شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أعلام هذا الوطن، لم ينل ما يستحقه من رعاية واهتمام، مع أنهم جميعاً أثبتوا بعطائهم ونتاجهم الإبداعي الذي كُرِّس في مجمله لخدمة قضايا العروبة والإسلام أن التربة الفلسطينية– وعلى عكس ما يردده نفر من المستشرقين– لم تكن عقيمة أو مجدبة خلال أي دور من أدوارها التاريخية، وأن سلسلة الآداب والفنون عندنا لم تنقطع، بل ظلت حلقاتها متصلة مستمرة، تحمل رسالتنا الإنسانية في كل عصر وفي كل جيل.

من أجل ذلك انبريت، بمساعدة كريمة من بعض الأصدقاء، لجمع ما يمكن جمعه من تراث هذا المبدع العظيم، وطفقت أبحث عن كتبه ومقالاته وردوده ومنتخباته في المكتبات العامة والخاصة، وفي ثنايا الصحف والمجلات القديمة كالرسالة والزهرة والنفائس وغيرها.

وقد فوجئت آنذاك أن لدى الرجل تراثاً زاخراً في شتى حقول المعرفة، فقد خاض في مسائل اللغة والعقيدة والفقه والتفسير والأدب والنقد وغيرها، غير أن قدراً كبيراً من هذا التراث ما زال مجهولاً عند الكثيرين، ولم ينتبه لوجوده غير قلة من الباحثين. وأظن أن السبب الرئيس في ذلك يعود إلى أن أغلب الردود والمقالات التي نشرها إسعاف كانت ممهورة بتواقيع مستعارة، ومبثوثة في العديد من الدوريات القديمة التي كانت تصدر في فلسطين وخارجها، ولا سيما في دمشق وبيروت والقاهرة.

ولعل ذلك من جملة الأسباب التي دفعتني للاقتراب ثانية من فكر أديب العربية وتراثه الأدبي، ومعايشته والتأمل فيه. وقد أحسست من خلال هذه المعايشة أن الواجب يقتضي القيام بعملية حصر شاملة لهذا التراث الغني هدفها تعريف القراء والباحثين بمجمل نتاجه الأدبي والفكري، وتسهيل مهمة من يرغب منهم في الاستزادة في البحث والدراسة والتنقيب، وتكون بالتالي مقدمة لنشر كامل هذا النتاج وإصداره في أقرب فرصة ممكنة، وفاء وتقديراً لهذا الأديب الكبير الذي عاش حياته متيماً بلغته، غيوراً على دينه ووطنه، في زمن لا يثبت فيه على غيرته هذه إلا من راض نفسه على عذاب كعذاب السعير.

وبعد، فإن ما قمت به في هذا الكتاب مجرد محاولة متواضعة في هذا السبيل أملاها عليَّ الواجب، وشدَّني إليها إحساس متواصل بأن هناك أموراً جديدة يمكن إضافتها إلى ما سبق بحثه ودراسته عن أديب العربية، ولا سيما التي تتعلق بشخصيته ومواقفه وعلاقته مع معاصريه من الأدباء والكتاب والمثقفين، وإني لأرجو أن تحقق هذه الدراسة هدفها، وأن تسهم ما وسعها في إضاءة جوانب لم تكشف بعد من أبعاد هذه الشخصية العميقة، فإن تحقق ذلك فبنعمة من الله وفضل، وإلا فإنه قصور مني أتحمل وحدي مسؤوليته وتبعاته.

والله ندعو أن يهدينا إلى سواء السبيل

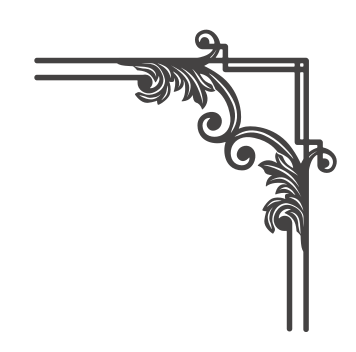
أ. د. حسن عبد الرحمن سلوادي

عميد الدراسات العليا/ جامعة القدس المفتوحة

رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني

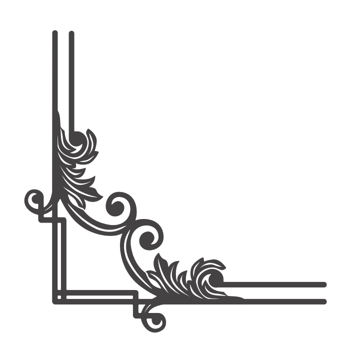
القدس في 14/ 1/ 2018

محتويات الكتاب



الفصل الأول

نبذة عن حياة إسعاف النشاشيبي



الفصل الأول

نبذة عن حياة إسعاف النشاشيبي

يعد أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي من الأعلام البارزين الذين أنجبتهم تربة هذا الوطن في تاريخها الذي لم ينقطع مدده، ولم ينزر عطاؤه في حقبة واحدة من حقبه الحافلة بالعطاء الجم والأحداث الجسام.

ومع هذه الشهرة العريضة، فإن سيرته يشوبها قدر غير قليل من الغموض والإبهام، وخاصة في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، فلا نكاد نقع على ما يوضح معالم هذه الصورة، ويجلو صفحاتها، ويبرز معالم النشأة الأولى لهذا الأديب المبدع، والعوامل التي كان لها تأثير في صقل شخصيته، وإعداده ليكون في طليعة الأدباء المتميزين- ليس في فلسطين فحسب- وإنما في غيرها من أقطار الوطن العربي الكبير.

واذا ما رجعنا إلى الأوراق الرسمية للحكومة العثمانية في الفترة التي سبقت الحرب، فإن سجلاتها تشير إلى أن مولده كان في سنة 1890م في القدس الشريف، وهو دون ما يرويه معاصروه (1) ، كما أن هذا التاريخ يتعارض مع ما ذكره النشاشيبي نفسه في إحدى خُطبِه من أنه ولد في سنة 1882م، وهذا ما يرجحه عميد الأدب العربي الفلسطيني الدكتور إسحاق موسى الحسيني، استناداً إلى تاريخ ولادة معاصر له هو خليل السكاكيني حيث يقول: «ولا شك في أنه أصغر سناً من السكاكيني الذي ولد سنة 1878م، وإذا صحت سنة مولده 1882م، فيكون الفرق بينهما نحو خمس سنوات، وهو أمر يكاد يكون قريباً من الصواب (2) .

ويرجِّح هذا التاريخ أيضاً أن إحدى المجلات نشرت له قصيدة، ووصفته بأنه من أجِلَّة العلماء في القدس الشريف، فيستبعد أن يكون كذلك وهو في الخامسة عشرة من عمره، حسب ما هو مثبت في سجلات الحكومة من أن مولده كان سنة 1890م (3) .

وأيا كان الأمر، فقد درج أديبنا خطاه الأولى في بيت والده في البلدة القديمة في القدس الشريف، وهو ينحدر بنسبه إلى أسرة معروفة بنبل محتدها وأصالة نسبها، فأبوه عثمان بن سليمان النشاشيبي (4) من أبرز رجالات القدس ذكاءً وعلماً وبسطة مال (5) ، فقد كان عضواً في مجلس المبعوثان في الآستانة، وعضواً في مجلس الإدارة مع متصرف القدس، وقد ورث عنه مزاجه العصبي، وميله إلى الأدب، وجلّ ثروته. ووالدته ابنة الحاج مصطفى أبو غوش الملقب بملك البر، أما أجداده فكانت لهم مكانة مرموقة في عهد دولة المماليك، فجدُّه الأول أحمد بن رجب النشاشيبي كان من رجال الملك الظاهر، كما تولى أحد أجداده

وهو الأمير ناصر الدين بن النشاشيبي [6] نظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل.

درس النشاشيبي في بداية حياته في أحد الكتاتيب في القدس الشريف، وتُجمع المصادر [7] التي ترجمت له أن والده عمل بنصيحة صديقه: (راغب الخالدي) الذي أطلعه على حال التعليم في هذه الكتاتيب وأوضاعها المزرية، وأكد له أنها بمستواها التقليدي المتواضع دون ما يطمح إليه إسعاف الذي بدت عليه منذ صباه مخايل النجابة والذكاء، فأرسله والده إلى بيروت ليواصل دراسته الثانوية في المدرسة البطريركية، ويخالف الدكتور كمال الريماوي في معرض حديثه عن حياة إسعاف هذه الرواية، مؤكداً أنه أكمل دراسته الثانوية في مدرسة الفرير الفرنسية في القدس، ثم انتقل بعدها إلى بيروت، ولكنه لم يشر إلى المرجع الذي استقى منه هذه المعلومات [8] .

لبث إسعاف في المدرسة البطريركية أربع سنوات كاملة، كان لها تأثير بعيد المدى في شخصيته العلمية والأدبية، فقد تلقى العلم في هذا المدرسة على أيدي أساتذة، كان لهم باع في علوم اللغة العربية، مثل: الشيخ عبد الله البستاني، والشيخ محي الدين الخياط، والشيخ النحوي مصطفى الغلاييني صاحب كتاب: (جامع الدروس العربية في النحو) . وغيرهم من أجلة العلماء الذين تعهدوه بالرعاية، وصقلوا مواهبه ونمُّوا استعداده، وغرسوا في نفسه الأدب القديم على نحو لم يكن مألوفاً في بلده، "فشغفته العربية بأسرارها الدقيقة وأساليبها المحكمة" [9] .

وقد أورثه أولئك المعلمون بالإضافة إلى ما سبق إحساساً نقدياً ركيزته ذوق رفيع، وثقافة واسعة فأقبل على أدب أمته وتراثها يعبُّ من كنوزهما، ويستخرج فرائد لآلئهما. وقد قرأ في سبيل ذلك مئات الكتب من أمهات كتب التراث وهضمها، فصقلت قريحته، ووسعت مداركه، وزودته بثروة فكرية ولغوية ندر أن تجتمع لأديب واحد في عصره، ومن بين الكتب التي أولع بها، وكان يستشهد بشذرات منها في خطبه ومقالاته، الأمالي لأبي علي القالي، وشرح نهج البلاغة لابن تغري بردي، وأساس البلاغة والمفصل للزمخشري، وأدب الكاتب لابن قتيبية، والبيان والتبيين للجاحظ، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري، والكنايات للثعالبي وغيرها.

وقد جمع إسعاف من بطون هذه الكتب مئات النوادر واللمحات الدالة، كان ينشرها تباعاً في الفترة بين 1937 – 1947 في مجلة الرسالة القاهرية، وكان لها صدى واسع بين أدباء العربية، فكانوا ينتظرونها بشوق كبير على صفحات الرسالة، ويستوحشون إذا انقطعت، وقد عبر الدكتور زكي مبارك عن ذلك قائلاً: «من واجبي نحو نفسي أن أعلن أني استوحشت لغياب الشذرات النفيسة جداً التي كان ينشرها الأستاذ الجليل إسعاف النشاشيبي

على صفحات الرسالة فمتى تعود؟ . هي مختارات منقولة من هنا وهناك، ولكن الذوق في نقلها قد بلغ الغاية في شرف التحليق، وأظنها ستصبح كتاباً يحق له أن يسمى كتاب الأمة العربية» (10) .

ونظراً لأهمية هذه المقتطفات في تربية النشء واطلاعهم على جوانب من حضارة أمتهم الماجدة وقيمها الأخلاقية الرفيعة، فقد بادر عميد الأدب الفلسطيني المرحوم الدكتور إسحاق موسى الحسيني لجمعها. . ونشرت في كتاب واحد بعنوان (نقل الأديب) ، وصدَّرها بمقدمة وترجمة موجزة لحياة صاحبها.

عاد إسعاف النشاشيبي إلى القدس قبيل إعلان الدستور، ولم يكن عمره قد تجاوز العشرين عاماً، فاندمج في الحياة الأدبية والفكرية في وطنه فلسطين، ودبج عشرات المقالات والقصائد الشعرية، نشرها في الصحف والمجلات التي كانت تصدر في تلك الفترة كالنفائس العصرية لخليل بيدس، ومجلة الأصمعي لحنا العيسى، والمنهل والزهرة التي كانت تصدر في حيفا، ومرآة الشرق وغيرها (10) .

ثم اتخذ مجلة الرسالة القاهرية بعد ذلك منبراً لكتاباته، وهي التي عرَّفته إلى جمهور القراء في الوطن العربي، فكان لا يخلو عدد من هذه المجلة من مقال له أو تعليق أو تصويب لغوي لمشاهير الكتاب في مصر وغيرها من الأقطار العربية. وكان يكتب هذه التعليقات والتصويبات أحياناً بأسماء مستعارة مثل: (السهمي) (والنشَّابي) (وأستاذ جليل) (والقارئ) وغيرها.

عمل إسعاف في بداية حياته معلماً في الكلية الصلاحية بالقدس الشريف التي أنشأها جمال باشا، ثم عمل مدرساً، فمديراً في المدرسة الرشيدية، وذكر الدكتور إسحاق موسى الحسيني أنه تعلم على يديه اللغة العربية في هذه المدرسة، وذكر أنه أول من نمَّى في نفسه حب الأدب القديم، ووجهه إليه، ثم اختير بعد ذلك ليكون مفتشاً للغة العربية في المدارس الثانوية، وكان زميله خليل السكاكيني مفتشاً في المدارس الابتدائية في الفترة نفسها، ثم ما لبث أن زهد في الوظيفة لكثرة ما حاكهُ الإنجليز من مؤامرات عليه، فآثر التفرغ للكتابة والتأليف، واعتكف في قصره الذي بناه على مشارف مدينة القدس يكتب وينشر مؤلفاته. وفي هذا البيت الذي كان كعبة القصاد من كل طرف، ألف النشاشيبي كتابه: (الإسلام الصحيح) ، الذي وصفه لتلميذه الدكتور إسحاق الحسيني قائلاً: "سيزول كل شيء، ويبقى الإسلام الصحيح" (12) وقد قرأ في سبيله نحو تسعمائة كتاب في مباحث متشعبة عويصة (13) .

كان النشاشيبي يتردد على القاهرة بين الفينة والأخرى، بعد أن ذاع صيته، وحظي

بشهرة عريضة، وخاصة بعد أن ألقى خطبته الرائعة (كلمة في اللغة العربية) في جمعية الرابطة الشرقية في القاهرة سنة 1924م.

وقد كان مجلسه في (الكونتيننتال) أشبه ما يكون بمنتدى أدبي حافل، يؤمه أقطاب الفكر والأدب في أرض الكنانة، وكان إسعاف في حلقات ذلك المنتدى واسطة العقد ودرَّته، فكان يمتِّع جلساءه بكل طريف ونادر، ويأخذ بمجامع الحديث حتى لا يعلو في المجلس صوت غير صوته، فيبهر السامعين بقوة منطقه وسطوع حجته.

وقد وصف محمد عبد الغني هذا المنتدى الأدبي الرفيع فقال: «وكان أحب إلى نفسي أن أبتدر مكاني في الندوة حيث تتحلق الحلقة، وتتسع الدائرة، ويأتي زائر آخر يتفسح بكرسيه في المجلس فنفسح له.. ثم نأخذ بأطراف الأحاديث بيننا، كل على قدر ما وهب **الله** من موهبة الكلام. فإذا إسعاف النشاشيبي يوجه الحديث في المجلس، ويأخذ بزمام القول، ويديره. واذا به يصل الحديث بالقديم، والحاضر بالماضي، واذا هذا الرجل الضئيل المنزوي يتحرك كأنما مسّه شحنة من «كهرباء»، فتشيع «الكهربائية» في عينه اللامعة، وفي صوته الجوهري، وفي إلقائه الذي يهتز فيه ويضطرب، ويقوم ويقعد، كأنما يريد أن يجسِّم المعاني بهذه الحركات الانفعالية التي لم أشهد لها ضريباً فيمن سمعت من المحدثين والمتكلمين» [14]

وهكذا كانت شخصية إسعاف كحياته شخصية ثرية حافلة متعددة الجوانب والأبعاد، فقد كان رحمه **الله** شاعراً [15] وأديباً ولغوياً ومفكراً وفقيهاً مجتهداً قوي الحجة، ناصع البيان، وتنم كتاباته عن غزارة علم، ودقة بحث، وحسن اختيار لما يستشهد به من أمهات كتب التراث، وأسلوبه في الكتابة رصين جزل، حتى يخيل لمن يقرأه أنه قديم النزعة، رجعي الفكرة، آثاري النظرة، وكان شائعاً بين أدباء عصره تحمسه لأساليب الكتابة العربية في عصورها الزاهرة، وهذا ما ألمح إليه مصطفى وهبي التل في قصيدة نشرها في مجلة الشرق تنويهاً بخطبته في مهرجان الغلاييني، ووصفها بأنها نظمت بلغة إسعافية (ماجيتية) . وقال فيها:

والله لــــــولا أنــهــا بيـــــروتُ وأنـــــَّـه اســـــتاذنا الخرِّيــــــتُ

وخشيتـــي أن ينــبري عِفريــتُ يقــول لي (أسعــاف) يــــا سِكْتيــتُ

مــا جيـتـكمْ مــا جيـتـكمْ مــا جيتْ [16]

لقد أشاد بعض النقاد بهذه الميزة المتأصلة في أديب العربية، وتحدثوا عنها منوهين بقدرة صاحبها الفذة على إحياء الأساليب العربية الأصيلة، وبمهاراتها الفائقة في استخدام أسلوب من أبرز سماته: الاحتفال باللفظ الفصيح، والتركيب البليغ، والعناية بالازدواج

اللفظي، أو التوازن بين ألفاظ العبارات الذي يضفي لوناً عذباً من الموسيقا، ويجعل بين تلك الألفاظ والجمل تناغماً وتناسقاً بديعين تطرب لهما الأذن وتنتشي بها النفس. وهو أسلوب لا يواتي المنشئ إلا إذا سلمت في نفسه الفطرة وواتته الموهبة، وساعده الاطلاع، وكان قد تضلَّع في علوم اللسان، وأحاط بأسرار اللغة [17] .

ومن الجدير بالذكر أن نفراً من نقادنا القدامى فضلوا هذا النمط من الأداء على غيره، حتى قال أبو هلال العسكري: «لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً، ولا نكاد نجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن؛ لأنه في نظمه خارج عن الخلق، وقد كثر الازدواج فيه» [18] .

ومن الكتاب المعاصرين الذين عنوا بهذا النمط الأسلوبي فضلاً عن إسعاف، الكاتب المصري أحمد حسن الزيات، ولعل هذا كان من جملة الأسباب التي قربت بين الرجلين، ووحدت بين روحيهما في إطار من الألفة والانسجام، وطالما عبر أحدهما عن إعجابه بالآخر يقول إسعاف مثلاً: «الزيات إذا نثر مثل شوقي إذا شعر، ولقد أعطى الله مصر في هذا العصر إمارة الشعر وإمارة النثر، ولو بعث فلوبير القائل: «أهون على المرء أن يقنطر (يكنز مالا يوزن بالقنطار) ، وأن يسكن في قصر بندقي فنيسي منجد من أن ينشئ صفحة واحدة عربية، لأضاف إلى قوله هذه الكلمات: (مثل الصفحات ينشئها الزيات)» [19] .

على أن إسعافا لم يكن في الحقيقة بالصورة التي رسمها له معاصروه، وانما كان جامعاً بين القديم والجديد، موفقاً بين الماضي والحاضر، ملائماً بين الأمس واليوم، «حتى لقد استوى فيه مزاج غريب خاص يجمع بين العاطفة للقديم، والتعقل والتفطن للجديد، ويوائم بين عربية القلب وعربية العقل»[20] كما عبر عن ذلك بوضوح في محاضرته الشائقة التي ألقاها في جامعة بيروت الأمريكية بعنوان: (قلب عربي وعقل أوروبي) .

والواقع أن هذا الاتجاه التوفيقي الذي يجمع الأديب فيه بين الرصانة والابتكار، قد أهّل إسعافاً وجعله على رأس مدرسة مستقلة في النثر الفني في فلسطين، تقابل مدرسة أخرى توازيها في أصالتها، وهي مدرسة الأديب المجدد خليل السكاكيني التي ارتكزت دعائمها على الاحتفال بالمعاني والمواءمة بينها وبين الألفاظ في نسق يبعدها عن اللفظية والتكلف، ويجعلها قريبة من روح العصر [21] يقول هشام ياغي في كتابه: (حياة الأدب الفلسطيني): والحق يقال إن الأستاذ النشاشيبي كان بريئاً من التقليد. إنه ورد تلك الينابيع العذبة الصافية، وفتن بها، وجعلها أساساً ثابتاً قوياً لمبانيه الشامخة. إن فيه تلك الضخامة التي ورثناها عن الجاهلية وصدر الإسلام. والمتانة التي انحدرت إلينا منهم بغير شوائب تشوبها، ولكلامه وقع في أعماق القلوب، ومستقر ثابت مكين في النفوس، لا تحس فيه

صناعة مجلوبة، ولا حلية مغصوبه ولا ركاكة ولا عوج» [22] ويؤكد ياغي أن هذا النمط الأسلوبي لا يجيده غير إسعاف، وذلك بما تهيأ له من ظروف قلَّما تهيأت لسواه، ((ومن هنا كان نسيج وحده، وكان ظاهرة رائعة من ظواهر هذا المتجه الخطر (متجه الخاصة) ، ولكنه ظل محافظاً على الرونق، وكان تألقه ملكة مستقرة في قلبه، وكان دليلاً على علو نفسه اللغوي وسلامة ذوقه الأدبي)) [23] .

كانت آخر زيارة لإسعاف للقاهرة شتاء عام 1947م، وكان في نيته طباعة ثلاث مخطوطات له هي: (الأمة العربية) ، (وحماسة النشاشيبي) ، (وجنة عدن) ، ولكنه قضى دون أن يحقق رغبته، وفقدت هذه الكتب الثمينة مع ما فقد من كنوز مكتبته العامرة ومخطوطاته النادرة.

وكانت وفاته في الساعات الأولى من صباح يوم الخميس الواقع في 22 كانون الثاني، وكان إلى جوار سريره ساعة وفاته كل من الأديب المصري أحمد حسن الزيات، ورئيس وزراء مصر السابق محمد النقراشي وعبد الرحمن فهمي الجديلي سكرتير سعد زغلول باشا زعيم مصر الخالد، وقد جرت له جنازة حافلة شارك فيها مندوب الملك المصري فاروق، وسماحة المفتي الحاج أمين الحسيني، ومندوب رئيس الوزراء وصفوة من رجال مصر، وغيرها من الأقطار العربية مثل: عبد الرحمن الجديلي، وعبد الوهاب عزام، وأحمد حسن زيات، ومحمد عبد الغني حسن، وأحمد فؤاد الأهواني وأحمد لطفي حسن، وألقيت في جنازته كلمات نُشر بعضها في مجلة الرسالة القاهرية التي نعته إلى أمته العربية والإسلامية بكلمة مؤثرة عنوانها: «وأسفاه مات النشاشيبي» قالت فيها:» قضي الأمر وقضى إمام العربية الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي، توفاه الله إليه في منتصف ليلة الخميس الماضي بالمستشفى بعد أن نقلناه إليه من الفندق بأربع ساعات، ثم انتشر نعيه في الصباح الباكر، فلم يبق أحد ممن يعرفون الفضل أو يقدرون الأدب أو يقوّمون الخلق إلا أرسل عينيه أو قلَّب كفيه حزناً على استشهاد هذا البطل المخلص في الميدان الذي ارتضاه لجهاده في سبيل دينه ولغته وعروبته.

كان نعيه يقابل في كل مكان، ومن كل إنسان بالحسرة والدهشة: بالحسرة، لأن من قرأ النشاشيبي يعتقد أن مكانه لن يملأ، وأن خلفه لن يكون. وبالدهشة لأن من رأى النشاشيبي لا يتصور أن هذه الشعلة الذهنية تخمد، ولا أن هذه الحركة العصبية تسكن. أخلد النشاشيبي مضطراً إلى سكينة الموت بعد خمسة وستين عاماً قضاها في جهاد متصل: جاهد في شبابه للحياة من غير هدنة، ثم جاهد في شيخوخته للخلود من غير راحة، ثم ألقى السلاح ومضى كما يمضي الربيع، تاركاً وراءه الخصب والعشب والثمر.

وهكذا قضى أديب العربية وهو متنسك في محراب العلم، وضمته تربة أرض الكنانة حانيةً عليه حُنوَّها على أبنائها. فقد ظل طيلة حياته وفياً في وداده لها ومحبته لساكنيها،

وتقديره لدورها التاريخي في الحفاظ على العهد الذي قطعته على نفسها في مناصرة الحق والدفاع عن قضايا العرب والمسلمين. وقد أشار صديقه محمد عبد الغني حسن إلى هذه المعاني في رثائه له حين قال: (25)

يا غريبَ المماتِ ما نحنُ الا	غرباءٌ في منزلِ الغرباءِ
كل أرضٍ ضمتك فهي وساد	يستوي عندها مصيرُ الفناءِ
أخطأتك الأقدارُ والبأسُ يغلي	في فلسطين والحِمى في دماءِ
وأصابتك في مكانٍ أمين	رب آمن يجذّ حبل الرجاء
لم تمتْ ميتةَ الجبانِ ولكنْ	متَّ في العلمِ ميتةَ الشهداءِ

لم يترك إسعاف بعده زوجاً ولا ولداً، وإنما ترك قصره الذي تحول إلى مركز للأبحاث والدراسات الإسلامية بجامعة القدس، وذلك بسعي حثيث من رئيسة مؤسسة دار الطفل العربي، والمرحوم الدكتور إسحاق موسى الحسيني الذي أشاد بهذا الإنجاز الحضاري قائلاً: «إني أكتب هذه الكلمة في بيت أستاذي الجليل» محمد اسعاف النشاشيبي بعد أن انتقل إلى مؤسسة دار الطفل العربي، ليصبح منارة علم وهداية، وليذكر فيها اسمه كلما أمَّه وافد وقصده قاصد، واعترف بأني عاجز عن إيفاء أستاذي حقه من التبجيل والتقدير، فقد كان إماماً في العربية وآدابها، قلّ ضريبه وعزّ نظيره. ولا تعرف بيت المقدس من يطاوله ويعلو عليه شغفا بالعربية وكشف محاسنها وإعلاء شأنها والتبصير بتراثها» (26)، وخلَّف إسعاف في قصره أيضاً مكتبة نفيسة وصفها مفتي فلسطين الأكبر المرحوم الحاج أمين الحسيني بقوله: «والله لا أعرف مكتبة خاصة عند أي ملك أو زعيم أو أديب أو مفكر في وزن وقيمة مكتبة الأستاذ «اسعاف». لقد أنفق عليها كل ما ورثه عن أبيه من مال وفير، واختار فيها أندر الكتب، وأصدق المراجع، وأغلى المخطوطات التاريخية الثمينة. وكانت مكتبته عنده بمثابة الزوج والابن والعائلة والحياة، وكل أملي أن لا يصاب هذا التراث الأدبي الهائل بأي شرّ وسط أحداث الحرب الدائرة حالياً..» (27).

غير أن هذا المعلم الحضاري لم يسلم من العبث والتخريب، فقد نهبت محتوياته وتحفه، وسرقت كتبه ومخطوطاته، وضاعت كنوزه على أيدي المعتدين العابثين. ومع ذلك بقي القصر شامخاً، وأخذ يستعيد مكانته تدريجياً، كما أرادها له إسعاف ليكون مصدر إشعاع ومنار هداية في المدينة التي أحبها وقدسها الأنبياء.

وقد كان لي شرف إدارة هذا المركز منذ بداية تأسيسه، حيث صدر عنه في فترة إدارتي له قرابة خمسة عشر كتاباً في مختلف ميادين المعرفة، واحتضنت جنباته العديد من المؤتمرات والندوات.

الهوامش:

1. د. إسحاق موسى الحسيني، مقدمة كتاب نقل الاديب، العربية محمد إسعاف النشاشيبي (بيروت: دار ريحاني للطباعة والنشر، (د. ت) ، ص: 6، وانظر د. اسحاق موسى الحسيني، أديب العربية الأجل محمد إسعاف النشاشيبي، مجلة المجمع العلمي العربي، ج22، مجلد 23، الأول من نيسان 1948م، ص: 294.
2. د. إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، 1987م) ، ص: 5 وهذا يرجحه أيضاً ناصر الدين الأسد، انظر كتابه: الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، (القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، 1957) ص: 59.
3. خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ط7، 1986م) ، وانظر محمد عبد الغني حسن، تراجم عربية، (القاهرة: دار الفكر العربية، 1986م) ص: 213.
4. عرفت العائلة بهذا الاسم نسبة إلى صناعة النشاب التي شهر بها أجداد إسعاف زمن المماليك، ولهذا كان إسعاف يذيل بعض مقالاته باسم مستعار هو النشاشيبي.
5. د. إسحاق الحسيني، مقدمة نقل الاديب، ص: 60.
6. استقر في القدس الشريف 875 وكان يوم دخوله المدينة مشهوداً، وقد وصفه مجير الدين الحنبلي بقوله: "وقرئ توقيعه بعد صلاة الجمعة، وأوقد المسجد في تلك الليلة، وشرع في عمارة الأوقاف، وأصلح حال سماط سيدنا الخليل عليه السلام، وباشر بعفة وشهامة، وحصل للأرض المقدسة الجمال بوجوده. وكان يكثر من مجالسة العلماء والفقهاء، ويحسن إليهم ويتلقاهم بالبشر والقبول، فعطف الناس عليه وابتهجوا به"، مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (القدس مكتبة المحتسب، 1973م) ، 2:288.
7. انظر على سبيل المثال: الدكتور ياسر أبو عليان وآخرون، أبحاث عن اديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، 1987م) . ص30، الزركلي، الأعلام، 31: 6، إسحاق موسى الحسيني، اديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، 294:23
8. الدكتور كمال الريماوي، حياة إسعف، من كتاب أبحاث عن اديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص 29.
9. نقل الاديب، ص: 7، وكان من زملائه في هذه المدرسة الأمير شكيب ارسلان، انظر

السكاكيني، كذا أنا يا دنيا، ص: 381.

10. مجلة الرسالة، مجلد السنة التاسعة، ص: 219.

11. انظر ناصر الدين الأسد، محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن (جامعة الدول العربية: معهد الدراسات العربية، 1960/ 1961م، ص، 45 وانظر دراسة نقدية لشعر إسعاف في د. خليل عودة، الجوانب الفنية في شعر إسعاف من كتاب: أبحاث عن اديب العربية محمد اسعاف النشاشيبي، القدس: مركز الأبحاث الإسلامية 1987ص: 123 – 137.

12. نقل الاديب، ص: 12.

13. جمع إسعاف في بيته آلاف المخطوطات والكتب النادرة، ولكنها نهبت في اثناء نكبة 1948م.

14. محمد عبد الغني حسن، تراجم عربية، ص: 215.

15. نظم إسعاف كثيراً من القصائد نشر غالبيتها في مجلة النفائس العصرية، وقد سمع الأديب الناقد (ثيدروف) قصيدته في ذكرى فتاة مكدونيا التي مطلعها:

أخطري اليوم في الربوع اختيالا   لا تخافي من العدوِّ اغتيالا

لا تخافي من كيده لا تخافي   إن كيدَ العدو ولَّى وزالا

فوصفه (ثيدروف) قائلاً: «اقترحت على النشاشيبي أن يسمعنا شيئاً من شعره فأنشدنا قصيدة في الحرية (ذكرى فتاة مكدونيا) ارتحت إليها كل الارتياح، وأكبرتُ المعنى العربي العظيم في اللفظ العربي الفخيم، وخِلتُ وأنا اسمعه كأني أسمع أصوات جمهور لا صوت فرد. كان هذا الشاعر يقرأ قصيدته، وفي كل نبرة من نبراته معان عظيمة، وقد ظهر وهو يقرأ نشيطاً متحمساً.

غير أن إسعافاً ما لبث أن ترك الشعر وانصرف عنه؛ لأنه لم يرض عن طبقته فيه، بل إن نثره أشعرُ من شعره، وفي نثره فقر كثيرة موزعة غير مقفاة بلغت حد الإعجاز. انظر، الزركلي: الأعلام، 31:6، ناصر الدين الأسد، محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن، ص: 45، اسعاف النشاشيبي، البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي، (القدس: مطبعة بيت المقدس، سنة 1932م) .

16. البدوي الملثم، عرار شاعر الأردن، عمان، 1958م، ص: 248، والخرِّيتُ: الدليل البارع

في القفار، والسكتيت: مبالغة في السكيت.

17.الزيات، وحي الرسالة، ع319، مجلد 4، ط2، 1958م.

18.أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص: 260.

19.انظر الرسالة، ولمعرفة المزيد من خصائص أسلوب الزيات أنظر، د. نعمة رحيم العزاوي، أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م) ص: 57، 58، 140.

20.محمد عبد الغني حسن، تراجم عربية، ص 223.

21.انظر تفصيلاً أوفى حول أسلوب السكاكيني في: الدكتور إسحاق موسى الحسيني،/ خليل السكاكيني الأديب المجدد (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، 1989م) ، ص: 87 – 100.

22.د. هاشم ياغي، حياة الأدب الفلسطيني الحديث، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط 2، 1981) ، ص: 353.

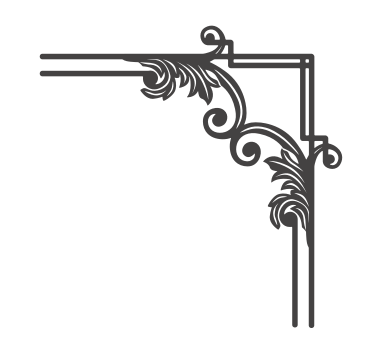
23.نفسه، ص: 354.

24.مجلة الرسالة، م12، ع 761 فبراير 1928م، ص: 1290.

25.في المصدر نفسه، ص: 161.

26.د. إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي (القدس، مركز الأبحاث الإسلامية، 1987م) ، المقدمة.

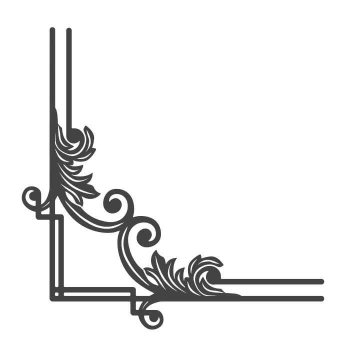
27.رسالة مخطوطة اطلعت على صورة منها في مكتبة مركز الأبحاث الإسلامية بالقدس.



الفصل الثاني

آثار النشاشيبي ومؤلفاته الفكرية والأدبية

- مؤلفاته الأدبية والنقدية.
- مؤلفاته اللغوية.
- خطب النشاشيبي.
- مؤلفاته في الفكر والحضارة الاسلاميين.
- مؤلفاته التربوية.
- مؤلفاته في السياسة والاجتماع.



الفصل الثاني

آثار النشاشيبي ومؤلفاته الفكرية والأدبية

كان النشاشيبي -كما ألمحنا سابقا- طلعة واسع الأفق يتمتع بذاكرة حادة، وحافظة قوية مع سرعة بديهة تجعله قادراً على استحضار ما تعيه ذاكرته ساعة احتياجه إليه من تمثل أو استشهاد. وقد وصف أحمد حسن الزيات هذه الثقافة المتشعبة في كلمته التي أبَّنه فيها على صفحات الرسالة فقال: «إنك لا تستطيع أن تذكر كتاباً من كتب العربية لم يقرأه، ولا بيتاً من شعر الفحول لم يحفظه، ولا خبراً من تاريخ العرب والإسلام لم يروه، ولا شيئا من قواعد اللغة ونوادر التركيب وطرائف الأمثال لم يعلمه، فهو من طراز أبي عبيدة والمبرد» [1] .

ولا شك في أن هذه الثقافة الموسوعية قد ميزت مؤلفات النشاشيبي وكتاباته بميسم خاص، فكان أكثر ما كتب تحقيقاً واختيارات وأمالي [2] ، وغلب المنحى اللغوي على هذه الكتابات، وهو منحى يدلُّ على تعمقه في اللغة ومعرفته بأسرارها وتطور ألفاظها، ومظان استعمالها، ولذلك وصفه صديقه الزيات قائلاً: أنه كان خاتم طبقة من الأدباء واللغويين المحققين، لا يستطيع الزمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجود بمثله» [3] .

والمتتبع لما كتبه إسعاف النشاشيبي في مجلة الرسالة من تحقيقات وتعقيبات وتصويبات للأغلاط التي كان يقع فيها كبار الأدباء والكتاب المعاصرين له، يدرك إلى أي حد كان اقتداره على الإمساك بناصية اللغة، واستيعابه الشامل لمسائلها ودقائق جزئياتها. فلا غرو إذا رشحه كثيرون لعضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة، وهو ترشيح يستحقه عن جدارة، وكان على وشك أن يلج الجمع من أوسع أبوابه، لولا تدخل الأهواء والنزعات الشخصية التي حالت دون قبوله في عضوية المجمع.

على أن إسعافاً مع شهرته العريضة، وصيته الذي ذاع في أرجاء الأقطار العربية كأديب للعربية، وفارس مجل من فرسانها لم يلق العناية التي يستحق، ولم يحظ بالاهتمام الذي لقيه أدباء لم يبلغوا شأوه، ولم يرقوا إلى منزلته إلى أن قيض الله له تلميذاً وفياً من تلاميذه وهو الدكتور إسحاق موسى الحسيني الذي أنكب على آثاره وكتاباته، وجعل من حياته وأدبه مساقاً يدرسه لطلبة معهد الدراسات العالية في القاهرة.

وبعد أن استقر بالدكتور الحسيني المقام في القدس وجه الدارسين للتنقيب عن آثاره والبحث في سيرته وأعماله، وكان ثمرة ذلك كتابين صدرا عن مركز الأبحاث الإسلامية في القدس أولهما للدكتور الحسيني نفسه بعنوان: (أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي،

والثاني لمجموعة من الأساتذة في الجامعات الفلسطينية وعنوانه: (أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي) .

وهكذا عرف بنو قومه فضله وأدركوا قيمته وقدروا جهوده في خدمة لغة الضاد، والدفاع عن قضايا العرب والمسلمين فكرموه، وكان من مظاهر هذا التكريم إقامة مهرجان تكريمي له بمبادرة من مركز الأبحاث الإسلامية وتنظيم مسابقة علمية للباحثين والدارسين بعنوان: (مسابقة عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي للأبحاث والدراسات المقدسية) عام 1993م. وكان قبل ذلك قد منح وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى للعام 1989/ 1990م من قبل رئيس دولة فلسطين. كما سبق منحه وسام الاستحقاق اللبناني عام 1947م من الحكومة اللبنانية آنذاك تقديراً لجهاده الأدبي الدائب المستمر في سبيل وحدة العرب والنهضة العربية. وكان بشارة الخوري رئيساً للدولة ورياض الصلح رئيساً للوزراء. ولذلك نشر في الرسالة ص: 645 أقواله في الثناء على لبنان بتوقيع (السهمي) ، يقول في ختامها: «انهم نظروا إلى إخلاصه لا إلى مقدرته، فالرجل عند التحقيق وليس هناك» (4) .

وقد عاش إسعاف قرابة 65 عاماً كانت حافلة بالجليل من الأعمال والأحداث. وخلال هذه الحياة القصيرة كتب في العديد من القضايا الأدبية واللغوية والدينية والتربوية مضمناً كتاباته وآراءه في الموضوعات التي كانت مطروحة في عصره، وفيها جميعاً لم ينعزل عن قضايا شعبه ومجتمعه، إذ كان البعد الاجتماعي والبعد الأدبي والبعد الديني تلتقي في نسق واحد يظل خلاله وعي أديبنا حاضراً يقظاً. وقد كانت المقالة الصحفية وسيلته الأولى في غالبية ما كتب، وما زالت هذه المقالات القيمة –للأسف– مبعثرة في الصحف والمجلات العربية كالرسالة والزهرة والأصمعي والجامعة العربية والنفائس وغيرها. وهي ما زالت تنتظر الباحث الجاد الذي يتصدى لجمعها ونشرها في مجلد يحوي كل أعماله كي تتاح الفرصة بعد ذلك للاقتراب من فكر الرجل وتقويمه، والاطلاع على منهجه في الكتابة والتأليف. وفيما يأتي ثبت بمؤلفاته مرتبة حسب موضوعاتها وسني طباعتها.

أولاً- مؤلفاته الأدبية والنقدية:

1. أبو تمام والمتطف م6، ع، 235، 1938م.
2. أ– أبو العلاء حرب الظالمين، الرسالة، 255، 2/ 5، 1938م.
3. أبو العلاء المعري، سلسة مقالات، الرسالة، الأعداد، 604، 605، 607، 608، 609 السنة 13، 1945م.
4. أخبار أبي تمام، (الرسالة، مجلد 6 عدد 277، 1938م.

5. آمالي النشاشيبي: (مخطوط وهو مفقود) .

6. أمثال أبي تمام: هي سلسة مقالات نشرت في مجلة النفائس العصرية ابتداء من الجزء الثالث، أذار سنة 1912م، السنة الرابعة، وتضم مجموعة من الأمثال والحكم المختارة من شعر حبيب بن أبو الطائي، وقد مهد لها النشاشيبي بالحديث عن مكانة أبي تمام كما وردت على لسان طائفة من أئمة الأدب، ثم أورد الدوافع التي جعلته يقدم على جمع تلك الأمثال ودراستها فقال: "كنت أنشد اخواني وخلصائي من الأدباء البلغاء والكتاب، ممن يكلفون بالقول المتين والشعر الحكيم أبياتاً من أمثال أبي تمام الطائي الشاعر الإسلامي الكبير، فكانوا يعجبون بها ويستظهرونها لفصاحة لفظها وبلاغة معناها، وللحكمة الباهرة التي اشتملت عليها، وقد سألوني منذ برهة أن أجمع لهم هذه الأمثال، كما جمع من قبل إسماعيل بن عباد المعروف بالصاحب، أمثال أحمد بن الحسين المتنبي، وأن أُطْرِفَهم بهذه الطرفة، فوعدتهم بأن أعطيهم سؤلهم، وأبلغهم أمنيتهم. ثم غدوت إلى ديوان (حبيب) ، وأنشأت أختار من قلائده وفرائده ما أختار، وأوضّح اللفظ الغريب في الأمثال ما أوضّح، وأعلق على بعضها من النوادر الأدبية والنكات اللغوية ما يمزج اللذة بالفائدة، سالكاً في ذلك سبيل الإيجاز، هرباً من تبرم القارىء وملله. وها إني أحملها إليهم فليكرموها بحفظها، وقد أثرت نشرها في هذه المجلة البليغة النابهة لانتشارها الباهر في القطرين الفلسطيني والسوري، ولميل أدبائهما إليها جد الميل [(5)] .

وحين فرغ من نشر هذه المقالات ختمها بقوله: «هذا نموذج من مؤلفي الذي عانيت في تأليفه وجمعه واختيار أبلغ القول له ما عانيت، والذي أجبرت على أن أتلو أربعمائة كتاب من كتب الأدب وغيره من الفنون من أجله، وسأظهره للناس بعد برهة من الزمن.

وأني أشكر لطائفة من الأساتذة والمحققين والكتاب البلغاء، إشادتهم به وتقديره فوق قدره، بما عدوه خير كتاب بدأ في الأدب العربي في هذا العصر. ولا ريب في أنه لم يحملهم على أن يقولوا الذي قالوا، إلا كرمُ أخلاقهم، وطيبُ أعراقهم، وكثرة فضلهم، وجنوحهم إلى تشجيع أهل العلم والأدب في عصر أُرديت فيه الهمم، وهلكت العزائم" [(6)] .

7. الأمة العربية: (محظوظ وهو مفقود) .

8. أمين الريحاني، قولان في البلاغة: (مجلة الرسالة، مجلد13، عدد 639، أكتوبر 1945) .

9. أنصاف البيت المظلوم، مدافعاً عن شوقي في بيته، شباب خنع لا خير فيهم، (الرسالة، 1948م) .

10. البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي، (القدس: مطبعة بيت

المقدس، 1932) .

11. التفاؤل عن أبي العلاء: (مخطوط وهو مفقود) .

12. جوته، حياته وشعره: مجلة الرسالة، 1941م) .

13. جوهر الجوهر من شعر الطائي الأكبر: (ورد ذكره على لسان النشاشيبي في مجلة الرسالة مجلد 27، عدد 35، 1939م.

14. جنة عدن: (مخطوط وهو مفقود) .

15. حكاية الوفد الكسروي: (الرسالة: سلسة مقالات نشرت ابتداء من 23/ 8/ 1943م، عدد 305 سنة 1939، وقال إنه نشره في مجلة لم يذكر اسمها.

16. الخوارزمي في الشعر (الرسالة، 1947م) .

17. الدمام: (الرسالة سنة 1937م) .

18. رسالة للريحاني: (مجلة منيرفا، بيروت 1343هـ).

19. الرغيف: (الرسالة: مجلد 12، 544، 1944م.

20. سينيات المتنبي: (مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد 4، ج9، 10، أيلول، تشرين أول 1936م) .

21. شق وسطيح، (الرسالة، مجلد6، عدد 249، ابريل 1938م) .

22. طاقات ريحان هدية إلى شعراء هذا الزمان: (الرسالة، مجلد 12، عدد 544، 1944م) .

23. العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي (القاهرة: مطبعة المعارف، 1928م) .

24. الفرزدق الشاعر: (مجلة الرسالة، سلسلة مقالات في الأعداد، 316، 317، 318، 319، 320، 221، 322، من عام 1939م) .

25. نشيد الانتقام، جوته شاعر الجرمان الأكبر: (مجلة الرسالة، 1941م) .

26. نقل الأديب: (بيروت: دار ريحاني للطباعة والنشر، د. ت) .

27. قاسم أمين هل كان كرديا: (الرسالة، عدد 255، 23 مايو، 1938م) .

28. القتل أنفي للقتل: (رد على الرافعي، الرسالة، سلسلة أعداد، ابتداء من 259، 260، 261، 1938م) .

29. قراءة الأفكار في القديم: (الرسالة، عدد 239، 31 يناير، 1938م) .

30. القصيد المرسل: (الرسالة، عدد 511، 1944م) .

31. المتنبي، أبو تمام، الوزن، القافية، التجديد: (الرسالة، سنة 1937م) .

32. مختارات من مخطوطة الزم الألزم من لزوم ما لا يلزم (الرسالة، الأعداد، 576، 577، 578، 1944م) .

33. مجموعة النشاشيبي: وتضم ثلاثا من خطبه: العربية وشاعرها الأكبر، اللغة العربية والأستاذ الريحاني، العربية في المدرسة التي نشرت في القاهرة عام 1948م.

34. لامية شعبة بن عريض: (الرسالة، عدد 522، 1944م) .

35. اللغة العربية والأستاذ الريحاني (دمشق: مجلة الميزان الدمشقية، رمضان 1344هـ/ 1925م) .

36. فهم البلاغة (تعقيب) : الرسالة، العدد 337، ديسمبر 1939م) .

37. نونية أبي تمام في رثاء ابنه: (الرسالة: مجلد 12 عدد 564، 1944م) .

مؤلفاته اللغوية:

1. أحاديث في اللغة، (العربية ماشية مع الزمن) (مجلة المجمع العلمي العربي (مجلة 19، ج1، كانون الثاني شباط 1944م) وأعيد طبعها أيضاً في كتاب أدبية العربية للدكتور إسحاق الحسيني (القدس مركز الأبحاث الإسلامية، 1987م) .

2. الألفاظ العربية، (مجلة الرسالة، مجلد 5، عدد 194، 1937م) .

3. برناندشو والحروف العربية، (الرسالة، مجلد 12، عدد 562، 1937م) .

4. الحرف العربي والافرنجي، (الرسالة، 1937م) .

5. حظي بالشيء: تحقيق، (مجلة الرسالة، سلسلة أعداد ابتداء من المجلد 6 عدد 264 (25 يوليو/ 1938) والأعداد 265، 266، 267 من السنة نفسها.

6. سبيكة العسجد في لغة محمد صلى الله عليه وسلم، (النفائس، ج2، السنة الثامنة، شباط، 1921م) .

7. شوقي والرافعي في النحو، (الرسالة– سلسلة مقالات ابتداء من 14/ 5/ 1945م) و25/ ابريل 1938م) .

8. طبيعي لا طباعي ولا طبعي: (مجلة الرسالة، مجلد 6، عدد 592، 1945م) .

9. العربية المصرية (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1352هـ) .

10. فعلاء: (الرسالة، 1947م) .

11. فن إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: وهي سلسلة مقالات نشرت لتصحيح أخطاء وقعت في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (الرسالة: ابتداء من 14/ 5/ 1945م) .

12. قصة الكلمة المترجمة: (مجلة الرسالة، 25/ 9/ 1938م) .

13. لغة محمد صلى الله عليه وسلم (مجلة الزهرة، العدد 1، السنة الثالثة، أيار، 1923م) .

14. اللغة العربية والحروف اللاتينية: (الرسالة 1947م) .

15. مجموعة رسائل الجاحظ: (الرسالة، مجلد 12، عدد 555، 1944م) .

16. من جديد (تحقيق لغوي) : الرسالة: العدد 417، يوليو، 1941م، عدد 326، السنة السابعة 2/ 10/ 1934م) .

17. المنضدة: (الرسالة، عدد 328، السنة السابعة، 26/ 10/ 1934م) .

18. نسائم الأستاذ علي الجارم: (الرسالة: العدد 239، يناير، 1938) .

19. يا رسول الله: (مجلة الرسالة، مجلد 7، عدد 324، 18/ 9/ 1939م) .

خطب النشاشيبي:

1. ذكرى أبي العلاء، (ألقيت في دمشق سنة 1944م، ونشرت في الرسالة بتاريخ 29/ 1/ 1945م) .

2. العراق في سبيل العربية، (ألقيت في حفل تأبين عبد المحسن السعدون، ونشرت في القدس عام 1932م) .

3. العربية في المدرسة: (ألقيت في مؤتمر رؤساء المدارس في معارف فلسطين في 21/ نيسان/ سنة 1927م) ، ونشرت في القاهرة عن دار المعارف سنة 1928م) .

4. العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي: (ألقيت في مهرجان أمير الشعراء شوقي في القاهرة سنة 1927م، ونشرت في القدس سنة 1928م) .

5. كلمة أديب العربية إسعاف النشاشيبي في الحفل التكريميّ للعلاَّمة الكبير الأستاذ الشيخ مصطفى الغلاييني، (ألقيت في دار الكلية الإسلامية في بيروت وطبعت في 18/ 6/ 1932م) .

6. كلمة في اللغة العربية: هي خطبة ألقاها إسعاف في دار الرابطة الشرقية بالقاهرة

عام 1343هـ، 1924م، ونشرت في مدينة القدس عام 1925م، وقد كان لها صدى واسع في الوسط الثقافي بالقطر المصري، وأشادت بها الصحف المصرية والعربية، ونوهت ببلاغتها وعلو أسلوبها وفصاحة ألفاظها وحماستها للعربية القديمة والدفاع عنها. يقول الدكتور إسحاق موسى الحسيني: "ونستطيع القول إن هذه الخطبة هزت الصفوة المصرية وبهرتهم، ومهدت الطريق لظهور تيار جديد في مصر هو تيار (العروبة) الذي كان ضائعاً بين النزعة الشرقية والنزعة الإسلامية، وربما كان يتمثل في شخص واحد هو شيخ العروبة أحمد زكي باشا، ثم اتسع رويداً حتى أصبح له الغلبة في حلبة الصراع بين التيارات السياسية بعد ثورة 1952م (7).

ونشرت في مقدمة الكلمة قصيدة لشاعر من فلسطين ينوه فيها بالخطبه ويقول فيها:

لغة «الجزيرةِ» حقُّها الإنصافُ	من ترتجيهم؟ صيدُها الشّغافُ
من كل أروع لا تلين قناتُه	ممن إذا شاموا المذلَّة عافوا
إن عقَّها أهلُ الضلال فإنما	برٌّ بها وبربِّها إسعافُ
أدبٌ وأيمُ الله ذوبُ حشاشةٍ	وبلاغةٌ هي قبلةٌ ومطافُ
هذا البيان «محمد» أوحى به	فلهُ على قولِ الورى إشرافُ
هو روح من عشِقَ «الكتابَ» وإنه	سمٌّ لشانئه البغيضِ زُعافُ

ومن الجدير بالذكر أن هذه الكلمة كانت سبباً في الجدال الذي احتدم بين إسعاف وأمين الريحاني على صفحات جريدة الميزان الدمشقية التي كان يصدرها أحمد شاكر الكرمي، فقد قرأ الريحاني الكلمة وانتقد أسلوبها المحافظ، وعرَّض بألفاظها البدوية الفخمة، ومغالاة صاحبها في حب القديم واقتفاء أثره، وذلك في رسالة وجهها إلى إسعاف النشاشيبي وجاء فيها: «إن هذا الأسلوب في الأدب مثل ذاك البدوي في الحياة، وهو مظهر عجيب يسترعي الأنظار فيدهش، ويطرب، ويحزن معاً. ولماذا؟ لأنه زائل. أحببت البدوي (والله) ، وكنت معجباً به، ولكني لا أستطيع ولا أحب أن أكون مثله. وأحببت (كلمتك) ، وكنت وأنا أطالعها معجباً بها. ولكني لا أستطيع، ولو أحببت، أن أكتب مثلها. لو كان لي أن أسوح في البلاد العربية بعد خمسين سنة لما عرفت على ما أظن، صديقي البدوي وقد تحضر أو تمصَّر، ولا أظن أن هذا الأسلوب أسلوبُك يكون مألوفاً أو معروفاً بعد خمسين سنة. والحُكم للمستقبل، فقد يحكم عليَّ وعليك معاً. ولكننا في غير الأسلوب متفقان. إني مكبر أدبك محترم علمك، محبذ دعوتك للمحافظة على روح اللغة والصيغة العربية فيها. وأظن أني من المحافظين،

ورغم تجددي المخيف، إذا اتخذت من ابن الأثير، وهو اختيارك، مثالاً أنسج عليه. ولكنك غاليت في حب القديم، غاليت يا رجل» (9) .

7. سير العلم وسيرتها معه: ألقيت في الكلية الصلاحية، ونشرت في القدس: مطبعة دير الروم الأرثوذكسي 1340. والرسالة تتضمن- كما وصفها الأمير شكيب أرسلان في تقريظه لها- : «موجزاً من تاريخ العلم من أول نشأته في أدمغة البشر حتى عصرنا الحالي» (10) مع التركيز على دور العرب والمسلمين وإسهامهم في تقديم مسيرة العلم في عصورهم الزاهرة، والأسباب التي أدت إلى تقهقهر أحوالهم وضياع مجدهم، ليصبحوا- على حد تعبير النشاشيبي- «مثلاً سائراً في الضلالة والجهالة والقلة والذلة والمسكنة» (11) ثم تبين الرسالة الطريق المؤدية إلى النهضة والتقدم واستعادة ما سلف من أمجادنا الغابرة، وذلك من خلال التزود بالعلم الحديث، واقتباس المعارف والفنون التقنية من مصادرها «حتى لا نظل عبيداً أرقاء وعسفاء (مماليك) أذلاء» (12) .

وقد نوه غير واحد بهذه الرسالة البليغة فقال الأستاذ (أنستاس ماري الكرملي) صاحب مجلة لغة العرب: «وقفت على نظيم هذه الدرر، بل على بديع هذه الأيام التي نضبت فيها عيون العربية الفصحى، وآثر عليها بعض الورَّاد آباراً ماؤها ملح رَنْقٌ (كَدرٌ) لا يشفي من غلة، فما أجدر (هذه الكلمة التي في سير العلم) بأن تتلى صباح مساء لتطبع محكمات عباراتها في الخاطر. فيجري عليها كل شاعر وناثر. وإنه ليزيد الإعجاب بها أن صاحبها قد أفرغ الفكر العصري في قالب عربي (جاحظي) السبك بعيد المنال» (13) .

وقال الأستاذ (قسطاكي الحمصي) في رسالة تقريظ بعثها إلى إسعاف: "وصلتني كلمتكم... فسرحت طرفي منها في روضة بلاغة نقطت أزهارها الغمائم. بل في عالم فضل جَمَعَ شتيتَ الموالم، ونقلتني سطورها الموجزة إلى الهند والصين، ورفعتني آياتها المعجزة إلى أعلى عليين. وأبعدت في المكان والزمان، وحتى حادثني كهنة مصر وفلاسفة اليونان، بل جاوزت بي عصور الخلق الحيواني وأحقاب ظهور النبات، بل تعمدت ما قبلها من الدهور السحيقة لتكون الجمادات، ثم حلقت على أجنحة الفكر وأقدام الخيار، فجولت في العوالم الشمسية، ومن لي يشرح ذيَّاك التجوال. وعاينت بأعين العلم ما تعجز عن إدراكه أعيان الحس من آيات الجمال. ثم حدرتني إلى عالمنا السيار وسايرتني إلى أخر الإعصار. وعرفتني جماعة من الحكماء الكبار (كباكون ونيوتن وسبنسر ودورين وكنت ولامرك) وهيكل علم المتأخرين، وكثيراً من أضرابهم من تطأطىء لفضلهم شوامخ الرؤوس، أسمائهم: لا عطر بعد عروس. فيا حبذا كلمتك وما أوجزت، ولله درك ولله أنت. لا زلت تدير علينا من صهباء فضلك كؤوساً، وتطلع لنا من سماءي معارفك بدوراً وشموساً (14) .

8. قلب عربي وعقل أوروبي ألقيت في جامعة بيروت الأمريكية سنة 1924م ونشرت في القدس في السنة نفسها.

9. مقام إبراهيم: (ألقيت في حفل التأبين الذي أقامه رجال الكتلة الوطنية في دمشق، 1354هـ) ونشرت في القدس: مطبعة بيت المقدس 1354 هـ) .

10. معركة حطين: (البطل الخالد صلاح الدين، القدس، مطبعة بيت المقدس، 1932م) .

مؤلفاته في الفكر والحضارة الإسلاميين:

1. الإسلام الصحيح (القدس: مطبعة العرب، 1354هـ) وأعيد طبعه في بيروت: دار العودة، 1985م. وهو مجموعة من المقالات والردود نشرها إسعاف في الصحف والمجلات المصرية، وخصصها لمناقشة قضية الصراع المذهبي المرير الذي استفحل أمره واستشرى خطره بين أبناء الأمة الواحدة، وقد ركز الكتاب على هذه القضية وناقشها باستفاضة بين من خلالها العديد من الثغرات والمزالق في فكر الشيعة ومعتقداتهم. وقد أثار الكتاب ردود فعل واسعة. وعارضه كثيرون لعل أشهرهم يوسف بن محمد الكافي الذي ألف كتاباً نقض فيه أقوال النشاشيبي وآراءه ولا سيما موقفه من السنة النبوية وتجاهله لها، واعتداده بالقران الكريم فحسب، وأسماه: (نقض إسلام النشاشيبي الصحيح بصريح الأدلة التي يفهمها الأعجمي والفصيح. ونشر في دمشق عام، 1354هـ) .

2. د. إسحاق موسى الحسيني، إسعاف النشاشيبي ابن القدس، مجلة الجيل، ابريل، 1988م، ص: 35.

3. أقوال في الزكاة: (الرسالة، عدد 614، 1944م) .

4. التزوج بالغربيات: (الرسالة، 1937م) .

5. التنويم المغناطيسي: (الرسالة سنة 1937م) .

6. حرق الميت: (الرسالة: 1937م) .

7. الرد على هاشم العربي وكتاب المبشرين: «سلسلة مقالات نشرت في الرسالة في الأعداد: 271 (12/ 9/ 1938م) ، 272 (19/ 9/ 1938م) ، 274، 277، 280، 283، 284 من السنة نفسها.

8. الرقص عن العرب: (الرسالة، عدد 612، 1944م) .

9. الزيدية، زيد علي بن الحسين، الإمامة الإسلامية آل البيت: (جريدة البلاغ، 25 ربيع الأول 1353هـ/ 1934م) .

10. الغناء (مجلة الرسالة، مجلد 12، عدد 567، 1944م) .
11. مقالات اسماعيلية: (الرسالة سنة 1937م) .
12. المهديون المنتظرون: (الرسالة سنة 1937م) .
13. الإنسان والدين: (النفائس العصرية، ج20، 1909م، المجلد الأول) .
14. التصوير والتمثيل في الحضارة الإسلامية: (الرسالة 2554، 1938م) .

مؤلفاته التربوية:

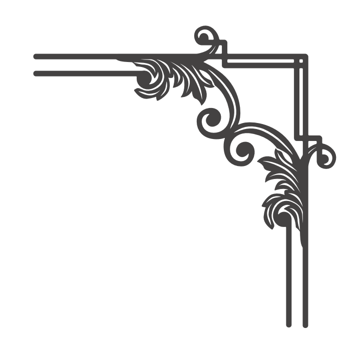
1. مجموعة النشاشيبي، وهي مختارات للاستظهار خصصها لطلبة المرحلتين الابتدائية والاعدادية.
2. البستان: (القاهرة: (دار المعارف، 1946م) .
3. العربية في المدرسة: (القاهرة: مطبعة المعارف، 1928م) .

مؤلفاته في السياسة والاجتماع:

1. أوروبا والمصلحة: (النفائس العصرية، السنة الرابعة، ج1، كانون ثان، 1912م) .
2. ارنست هيكل: (النفائس العصرية، السنة السابعة، ج5، 23/ آب/ 1919م) .
3. الثورة الصينية: (النفائس العصرية، مجلد 2 السنة الرابعة، شباط 1912م) .
4. الأعراب، نحن الذين بلغوا الرسالة (الرسالة، العدد 530، 1943م) .
5. الحكومات الأوروبية: (النفائس، السنة الرابعة، ج3، آذار 1912م) .
6. فلسطين وصاحب الرسالة: (الرسالة، العدد 266، 1938م) .
7. فلسطين والأستاذ الأكبر شيخ الأزهر: (الرسالة، عدد 253، 1938م) .
8. مصر وفلسطين: (الرسالة العدد 530، 1943م) .
9. يحيى ولفغنغ غوته (شاعر الجرمان العظيم) : (الرسالة، العدد 431، السنة التاسعة، 6 أكتوبر، 1941م) .
10. البشر وقوانينهم: (النفائس العصرية، مجلد 2، ج 6، نيسان، 1910م) .

الهوامش:

1. مجلة الرسالة (مجلد 12، عدد 761، 2 فبراير، 1948م) .
2. نفسه والصفحة نفسها.
3. المصدر نفسه والصفحة نفسها.
4. أخبار أبي تمام (الرسالة، مجلد 6 عدد 277، 1938م) .
5. آمالي النشاشيبي: (مخطوط وهو منفرد) .
6. النفائس العصرية، ج 3، آذار، 1912: ص: 11 – 117، السنة الرابعة.
7. النفائس العصرية، ج 10، تشرين الأول، 1912.
8. د. اسحق موسى الحسيني، إسعاف النشاشيبي ابن القدس، مجلة الجليل، إبريل، 1988م، ص: 35.
9. إسعاف النشاشيبي، كلمة في اللغة العربية، المقدمة ص: ج.
10. من مقال: (الفيلسوف ابن الريحاني، قولان له في البلاغة النشاشيبي مجلة الرسالة، مجلة 13، 639، 1945، ص: 1054.
11. انظر، إسعاف النشاشيبي، كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه، القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذوكس، 1340، المقدمة، ص: 5.
12. نفسه، ص: 13.
13. نفسه والصفحة نفسها.
14. إسعاف النشاشيبي، كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه، ص: 6.
15. نفسه، الصفحة نفسها.



الفصل الثالث

ملامح من شخصية إسعاف النشاشيبي

- إسعاف اللغوي المحقق.

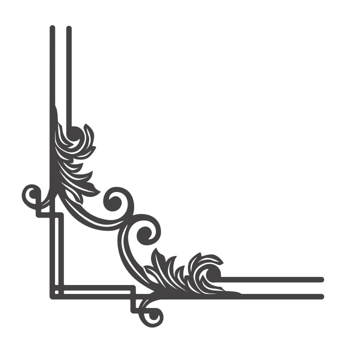
- إسعاف الأديب الناقد.

- إسعاف الوطني الغيور.

- إسعاف المجادل الحصيف.

- نماذج من مساجلاته مع معاصريه.

- إسعاف المفكر المسلم.



الفصل الثالث

ملامح من شخصية إسعاف النشاشيبي

شخصية إسعاف النشاشيبي كحياته شخصية حافلة خصبة متعددة الجوانب بعيدة الغور، وهو نموذج إنساني فريد، ومثال علمي رصين، يحوي مجموعة من الخلال الحميدة، والصفات العلمية الجادة التي يندر أن تتحقق مجتمعة في واحد من البشر، والتي يتعذر على أي كان أن يكشف عنها أو يحيط بأبعادها ما لم يتوقف طويلاً عند مجالات إبداعها، وجوانب عطائها في ميادين اللغة والأدب والفن والتاريخ والفقه والتفسير. وربما أسهمت ردوده وتعقيباته التي كتبها بتواقيع مستعارة، والتي أشرنا إليها عند حديثنا عن حياته ومساجلاته مع معاصريه في الكشف عن مزيد من سمات هذه الشخصية الموسوعية الثرية التي كان صاحبها –كما وصفه الدكتور عبد الوهاب عزام في رثائه له– «نسيج وحده في كتاباته وخطابته لا يتقبل أحداً، ولا يشبهه أحد. إنما كان صورة نفسه، وترجمان فطرته، ووحي نبوغه وعبقريته» [1] .

أو كما وصفه صديقه عجاج نويهض الذي لازمه ردحاً من الزمن «بأنه في طبيعة مزاحه كالقطعة من البلور، تعددت جهاتها، فصار النور ينعكس عليها بطرق شتى. وكلها جذابة، فتبدو للناظر وهاجة. وافرة اللمعان والألوان. وكيفما تقلبها في يدك تظل على الوهج والضياء) [2] .

نحن –إذن– أمام شخصية أدبية وعلمية لامعة تستوجب الدراسة والتأمل لكشف خباياها، وإبراز مزاياها. وسنحاول في الفقرات التالية من هذا الفصل تقديم شرح موجز عن بعض ملامحها المبدعة، نأمل إذا أضفناها إلى ما تطرقنا إليه في الفصول السابقة أن تشكل في مجموعها حافزاً يدفع الباحثين إلى مزيد من الدراسات التحليلية المتعمقة.

أولاً- إسعاف اللغوي المحقق:

لعل أول ما يطالعنا من ملامح هذه الشخصية الثرية، أن صاحبها عاشق للغة العربية متيم بها، لا يملُّ من الحديث عن محاسنها، ولا يسأم من عرض محاسنها ومزاياها التي تزينها وتميزها عن سائر اللغات. قال النشاشيبي في مقالة قصيرة نشرها في مجلة النفائس تحت عنوان: (سبيكة المسجد في لغة محمد) : «اللغة العربية لغة أتقنها الإتقان، وأبدعها الإبداع. وقد جمعت الحسن كله في نظام، وبذت جميع لغات الأنام. فالتجود فيها مخاصرها حيثما سارت، والتونُّق في معانقها أنى دارت. وإذا تنافرت اللغات يوماً،

وتساجلت جاءت قناة الجزيرة سيِّدة عقيلة وجئن إماء» [3] والعربية في رأيه» هي لغة (الكتاب) ، ولغة الأعراب، ولغة الإيجاز إذا ابتغيت الإيجاز، ولغة الأطناب إن ترد الأطناب. فهيهات هيهات أن تماشيها في الفصاحة والبلاغة لغة أو يجاريها في البيان لسان» [4] .

«وليس في لغة العرب من عيب يصيبها به الحاسد، أو مغمز يجد به إلى الطعن منها سبيلاً الناقد إلا صدور قومها عنها وهجرهم إياها. وإلا غربتها في وطنها. فهي في الأقربين غريبة، وإن ذلك إنما يشينهم ولا يشينها، ويضعُ من مقدارهم ولا يضع من مقدارها» [5] .

وقد كان لهذا الوله تأثير كبير في تفرغ النشاشيبي لدراسة اللغة العربية والدفاع عنها، فكان –رحمه الله– متميزاً في أبحاثه اللغوية عميقاً متمرساً في معالجته لمسائلها وقضاياها، لا يكتفي في ذلك بالجمع والعرض أو بالسرد والوصف، ولكنه استوعب القديم ليتخذ منه تكأة إلى إبداع جديد. وقد أسعفه في ذلك اطلاع واسع على دقائق اللغة وأسرارها. واستيعاب شامل لمراجعها ومعاجمها. ولهذا لم يكن يخلو عدد من أعداد الرسالة من بحث لغوي أو تعليق أو نقد أو معارضة لكبار الكتاب الذين عاصروه.

ولعله لا يغيب عن أذهاننا تلك المناقشات الحادة، والمواقف الطريفة التي كانت تدور بينه وبين جهابذة اللغة وفرسانها في زمنه مثل: إبراهيم اليازجي وزكي مبارك والرافعي وغيرهم. وهو ما دفع أمير البيان شكيب أرسلان إلى مدحه قائلاً: [6] .

قد قالتِ اللغةُ الفصحى بغربتها	قد أحسنَ اللهُ إسعافي بإسعافِ
هو المجيبُ لمنْ قد باتَ يَنْشُدهُ	أنصرْ أخاك لدى ظلمٍ وأسْ عافِ

ويلاحظ الباحث من خلال تتبعه لردود النشاشيبي وتصويباته وأبحاثه اللغوية أن درسه النحوي يقوم –كما هو شأن القدماء– على التحليل اللغوي للألفاظ والعبارات والجمل، فقد اهتم بالتوقف أمام الجمل والعبارات الافتراضية، وشرح النصوص النحوية المتعلقة بها، والكشف عما احتوته من تحليلات، وتتبُّع بعض الجمل والألفاظ عند النحاة لبيان وجهة نظرهم، ولم يقتصر على نحوي دون آخر، وعلى نحو ما اهتم بتحليل الألفاظ، اهتم كذلك بالتحليل اللغوي للجمل والعبارات، وبيان آراء النحاة حول ذلك كما فعل في تعقُّبه لأغلاط المبشرين التي وردت في كتاب لهم نسبوه زوراً للشيخ إبراهيم اليازجي، وذلك في سلسة مقالات نشرها في مجلة الرسالة القاهرية [7] . فقد انتقد النشاشيبي –على سبيل المثال– استخدام المبشرين كلمة الأهمية في قولهم: «لم يكن للقبيلة من الأهمية عندهم ما صار لها بعد ذلك»، فقال: «أرادوا أن يقولوا من المنزلة أو العز أو الخطر أو الشأن،

فقالوا: الأهمية، وهي لفظة منكرة عامية لم تعرفها العربية في وقت، وهي منسوبة إلى الأهم وهو اسم تفضيل من همَّ، وهي في الحقيقة للفعل أهمَّ فقولهم: فلان ذو أهمية، ولم تكن لكذا أهمية من الكلان المعتل» (8) .

والظاهر من ردود النشاشيبي على كتاب المبشرين، أنه لم يكن يلقي الكلام على عواهنة، أو يسوق آراءه دون دليل، بل كان يستشهد على صحة ما ذهب إليه بأمهات كتب التاريخ واللغة والمعاجم، ونسوق للدلالة على ذلك تعليقه على عبارة وردت في ذلك الكتاب يقول الكاتب فيها: «ولا تمرَّن سائرهم في حمل السلاح». قال النشاشيبي: قلت: في اللغة مرَّن وتمرَّن على الشيء، لا تمرَّن فيه. قال الإمام الجاحظ: أية جارحة منعتها من الحركة، ولم تمرنها على الأعمال أصابها من التعقيد على حسب ذلك المنع، وفي الصحاح: مرن على الشيء مروناً ومراناً: تعوده واستمر عليه. وفي الأساس: «من المجاز: مرنت يده على العمل، ومرن وجهه على الخصام والسؤال، «وفي المخصص: «مرنت فلاناً على الأمر»، ومثل ذلك في اللسان والجمهرة والمصباح والقاموس وشرحه وأقوال العرب (9) .

فأنت ترى أن النشاشيبي رجع إلى ما يقرب من عشرة مصادر ليصحح خطأً في استخدام حرف الجر (من) المقترن بالفعل مَرَنَ، وهو ما يدل على سعة استيعابه للتراث العلمي والأدبي ومصادره، ودقة توثيقه للمسائل العلمية والنحوية بالرجوع إلى أمَّات الكتب والمصادر اللغوية والأدبية والتاريخية.

ويدلي النشاشيبي بدلوه في مسألة لم تحسم بعد، بل ما زالت حتى يومنا هذا تفرض نفسها على الباحثين، وتتعاورها أقلامهم، وأعني بها مسألة تيسير قواعد النحو العربي وتبسيط أساليب تدريسها للناشئة والمتعلمين، فهو يرى: «أن المشكلة لا تكمن في صعوبة اللغة وسهولتها، ولا في قاعدتها، وإنما هي في العلم والكتاب، فهما اللذان يسهِّلان ويصعِّبان، وهما اللذان يَهدِيان ويُضلان وهما اللذان يُحبِّبان إلى الفتى لغته ويكرهان. فالمعضلة كل المعضلة هي المعلم وعلمه وتعليمه، وكتاب كل صف من الصفوف وتبويبه وترتيبه وتبيينه» (10) .

ويضيف النشاشيبي محذراً من المسِّ في قواعد اللغة، أو تغييرها، فيقول: «ومن ظن أو أيقن أن تقريب العربية أو تسهيلها هو في تهديم قواعد فيها، فهو مهوّس يهذي، أو موسوس يلغو، وليست اللغة العربية ملك كاتب أو كويتب أو أديب أو أُديِّب، أو عالم أو عويلم حتى يتصرف فيها تصرف المتملكين، كلا ثم كلا. إنها تراث قرون، وملك أمم، فأين يذهب بكم يا لاعبون؟! (11) .

وقبل أن ننتقل إلى ملمح آخر من ملامح شخصية هذا الأديب اللامع، يجدر بنا أن

نعرج قليلاً على طريقته في انتخاب الكلمة واختيار الألفاظ، فكما يظهر من المنتخبات التي اخترناها من آثاره في الفصل الأخير من الكتاب، وكذلك من سائر كتبه ومؤلفاته، فإن النشاشيبي يبدو شغوفاً بتضمين مقالاته ورسائله ألفاظاً غريبة غير مأنوسة، وتعابير غير مألوفة يلتقطها من بطون كتب التراث ومن المعاجم القديمة، ناهجاً في ذلك نهج أبي العلاء المعري الذي أشاد به إسعاف من هذه الزاوية، وبرر له صنيعه قائلاً: «ولقد أصاب الشيخ وأطاب حين حاش في رسائله ودواوينه وكتبه الكلمات الغريبات، فجمع مادَّات شاردات لم نر كثيراً منهن في معجم من المعجمات، وإن عربيَّات قديمات نشأن في الجزيرة مع أخوات لهن لحريات أن يظهرن، وأن يُعرضن، وقد برع أبو العلاء إذ نص على تلك الغرائب في حُللٍ عدنيات من العبارات كأنهن عرائس نوَّرن فوق منصّات، ولأن تجتاف لفظة غريبة جملةً أو بيتاً خير من أن توحد. ولكل لغوي في التصنيف نمط، وإن أحسن المعري فقد أجاد ابن سيدة، وأجاد الجوهري وابن دريد (12).

ويبدو أن هذا المنهج الذي اتبعه النشاشيبي شكل خصيصة رئيسة من خصائص أسلوبه، وميز بينه وبين أساليب غيره من الكتاب المجددين أمثال: السكاكيني وأحمد أمين والمنفلوطي وغيرهم، فبينما يوصف أولئك بأنهم من دعاة التجديد والترسل والتحرر من القوالب القديمة، فإن النشاشيبي يُدرَجُ اسمه عادة ضمن دائرة المحافظين الذين يعشقون الأنماط التعبيرية القديمة، ويحافظون على تقاليد الكتابة العربية وأساليبها كما تجلت في عصورها المزدهرة.

ثانياً- إسعاف الأديب الناقد:

لا أريد التوقف طويلاً عند هذه السمة من شخصية أديب العربية، فقد كفاني مؤونة التفصيل فيها نفر من الباحثين الذين اشتركوا في مهرجان تكريم النشاشيبي، ودبَّجوا أبحاثاً ومقالات تناولت عصره وحياته وأدبه وفكره، وقد جُمعت في كتاب صدر عن مركز الأبحاث الإسلامية بجامعة القدس تحت عنوان: (أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي). على أنني سأتوقف قليلاً لأعرض لمحات ومواقف دالة على علاقة النشاشيبي وآرائه في شخصيتين أدبيتين، إحداهما قديمة والأخرى معاصرة، ولكن يجمع بينهما أمور عدة، لعل من أهمها؛ أنهما يجمعان بين الشعر والنثر في نسق فريد، ومستوى رفيع من النظم والقول يجدر أن يتوافر لغيرهما، ونعني بهما أبا العلاء المعري وأحمد شوقي، وإني لأطمح من خلال ما كتبه النشاشيبي عن هذين المعلمين، وما جلته يراعه من صفاتهما وجوانب إبداعيهما أن أكشف عناصر جديدة لشخصية النشاشيبي نفسه، ولا سيما من الجانب الأدبي والنقدي.

1. إسعاف والمعري:

شارك إسعاف في مهرجان تكريم أبي العلاء المعري الذي أقامه المجمع العلمي العربي بدمشق، وألقى فيه خطبة ذاع صيتها في المحافل الأدبية في مصر والشام، ونشرتها مجلة الرسالة على حلقات ابتداء من العدد 604 الذي صدر يوم 29/ 11/ 1945. وإذا تأملنا الخطبة ملياً وجدنا أنها تعكس بوضوح شخصية إسعاف الأديب الناقد، ورؤيته الخاصة لصياغة الأدب وفنون القول، فإذا قال عن أبي العلاء «إنه جوهرة جاءت إلى الدنيا وخرجت». وإنه من أولئك النابغين وأولئك العبقريين، الرَّاسخين في العلم المستبحرين، فإنما يشير إلى رؤيته الخاصة للأدب الذي لا يدبِّجه، ولا يمتلك ناصيته سوى نفر قليل هم صفوة الصَّفْوةِ من الأمة [13]. لأنه –كما قال– «صعب بعيد المنال يحتاج إلى طول ممارسة، وسعة اطلاع، وكبير حفظ [14]. ولن يعطيك الأدب إلا على حساب ما تعطيه من نفسك، ولن يجود وأنت بانصابه ضنين» [15].

ويشير النشاشيبي من ناحية أخرى إلى العوامل التي تسهم في صنع الأديب، وتحدد مستوى إبداعه وجودته، فالأديب لا يرتقي بمستواه إلا إذا نهل من معين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومن أدب الأمة ولغتها في عصر مجدها، وهو عصر صدر الإسلام، ولا سيم القرون الثلاثة الأولى منه. وهذا ما فعله أبو العلاء طوال حياته وتمرَّس فيه. يقول النشاشيبي في ذلك: «وقد استهام الشيخ بلغة العرب وكان متمناه في دنياه، أو مرجاه الأسمى أن ينبغ فيها وفي علومها، فنبغ وبلغ حيث بلغ» [16].

وقال في موضع آخر: «بصّر الكتابُ الإلهيُّ المحمدي (أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري) بعجائبه وآياته، واستيقن واستبصر، وارتوى الشيخ من كوثر البلاغة القرآنية فأزهر الكلام ونوَّر.

نوَّر القرآن فعلاً وسما صاحبُه في القائلين

إنما القرآن هديُ الناطقين. إنما القرآن نور العالمين

غَثَّ قولٌ لم يهذِّبُه الكتاب [17]

وإذا استجمع الأديب أدواته، وحذق فيها، وبلغ الذروة، وارتقى قمة المجد، كما فعل المعرِّي الذي جمع العبقرية من طرفيها: عبقرية النثر وعبقرية الشعر. يقول النشاشيبي: إنه لمن النادر الغريب أن يحتاز الأديب عبقرية نثرية وعبقرية شعرية كما احتاز هذا الشيخ. وإذا كانت الإجادة لا تتفق في فنيّ المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل –كما قال ابن خلدون– فكيف حال العبقرية وهذان الشاعران العبقريان: أبو تمام والمتنبي لم ترو كتب الأدب

والسير من نثرهما إلا رسالة قصيرة للأول سطرها البديعي في (هبة الأيام) ، ورسالة أقصر منها للثاني أوردها ابن خلكان في وفيات الأعيان. وأما البحتري المسكين، فكان لا يخطُّ في النثر سطراً، وإذا خاطب أحد في شأن، وجه إليه شعراً، قال أبو العلاء في إحدى رسائله: «روي أن البحتري كان لا يقدر على كتب رقعة، فيجعل المظلوم عوضاً عن المنثور (18) .

وتشير الخطبة من جهة ثالثة إلى منهج نقدي أرسى النشاشيبي دعائمه، وشاد بنيانه، وهو بنيان يجمع في شكله ومحتواه بين الأصالة من ناحية والإبداع من ناحية أخرى. فالمبدع في أي فن من الفنون إذا انعزل عن تراثه، وانبتَّ عن ماضيه، يظل إبداعُه مشوهاً مبتوراً؛ لأن الإبداع الحقيقي، يجمع في نسق متوازٍ بين أصالة الماضي وتلادتِه وروح العصر وجدَّتِه. يقول إسعاف: «ليس كل جديد ينجم في الدنيا بجيد، وما كل قديم يضاره قدمه، ولا يرضى الحكيم من الجديد إلا إذا جاد. والجيد لا يرفض، بل يُستجاد، ويحرص عليه. وما نبذنا الجديد، وإن قال الشاعر الحكيم القديم، أعني الحطيئة: (لكل جديد لذة لجدته) ، لكن لفقدان جودته، فاغدُ علينا بالجديد نتقبله، ولن نجد هذا إلا في معادن القديم الكريم، فابحثْ عنه هناك، إبحث عنه هناك وابن عليه» (19) .

وقد طبق النشاشيبي هذا المنهج النقدي في خطبته عن أبي العلاء، فالقارئ لهذه الخطبة، وهي في حقيقتها دراسة نقدية متكاملة، **يدرك منذ البداية أن كاتبها حدد له أهدافاً ثلاثة سعى من وراء تحقيقها إلى تغيير ما أذيع عن شخصية أبي العلاء، ونقضِ ما تناقله الرواة قديماً حول إلحاده وتشاؤمه وكرهه للحياة:**

- الأول: نفى ما قيل عن إلحاد أبي العلاء أو زندقته التي اتهم بها دون بينة أو برهان.
- الثاني: نفي ما تردد طويلاً حول نزعته التشاؤمية وانعزاله عن الناس.
- الثالث: التدليل على علو كعبه في الأدب شعراً ونثراً، وتفوقه فيهما، والتزامه بمنهج الأقدمين وطرائقهم في الكتابة والتعبير.

ولا شك في أن تحديد هذه الأهداف يدل– في حد ذاته– على نزعة ابتكارية واضحة، ونهج جديد في دراسة شخصية المعرِّي، لم يسبق لأحد أن تناوله بهذا العمق والتفصيل، وضمن منهجية مؤسسة على استنطاق مئات الشواهد والنصوص الأدبية وتحليلها، وجلاء مراميها كما فعل النشاشيبي.

إن نظرة واحدة نلقيها على عناوين الفقرات التي ضمنها النشاشيبي في ثنايا خطبته ومنها: (الأمل، هون عليك، لا طيرة، بركات الله ورحمته، الإقدام والجسارة، الموت

كرهة، المال وتثميره، النسل والزواج، أدب السلوك، حفظ الرحم وغيرها) . هذه العناوين وما صاحبها من شروح وتعليقات وإحالات إلى عشرات من المصادر من تراثنا العربي، توضح مدى الجهد الذي بذله إسعاف لإقناع قرائه ومستمعيه بأن ثمة تغييراً طرأ على معالم الصورة التي توارثناها عبر قرون لشخصية أبي العلاء، ومن أبرز مظاهر هذا التغيير أن الرجل لم يكن ملحداً أو زنديقاً كما صورته الأخبار والأثار، وإنما كان مؤمناً متمسكاً بنحلته غيوراً عليها بدليل أنه نظم لزومية من واحد وعشرين بيتاً «أرسلها صاعقة مجلجلة أحرقت المضللين الذين صبأوا وفارقوا دين آبائهم وأجدادهم» [20] . ومن مظاهر هذا التغيير أيضاً أن أبا العلاء، وإن كان قد أقام في بيته مضرباً فيها، فقد كان مطلاً على الدنيا غير زاهد فيها «وكانت شؤون أمته تعنيه أيما عناية، والمتشائم لا تهمه حاله ولا يبالي بأمر باله [21] . والشاهد على ذلك مواقف وأقوال له «نطقت بالحقيقة وهدت إلى الطريقة، وعززت شريعة المتفائلين، وفندت مذهب المتشائمين، وبينت للناس كيف يحبون؟ ، وكيف يقوون؟ وكيف يسيرون في هذا الوجود؟» [22] .

وزيادة على ذلك فقد كان أبو العلاء– فضلاً عن تفاؤله وأثريته– «خصب الروح يدعبُ ويفاكه، وما رسالة الغفران إلا كتاب أماليح وأفاكيه وأهاكيم» [23] .

وبعد، فإن الصورة التي جلاها إسعاف لشيخ العربية أبي العلاء، ولمن سبقه أيضاً من الشعراء مثل المتنبي وأبي تمام والبحتري، تظهر مدى تبحره بالتراث العربي القديم وإحاطته له، فقد قرأ العشرات، بل المئات من المصادر الأدبية النقدية وهضمها، لكنه –كما بدا في مجمل آرائه النقدية– لم يتوقف عندها، ولم يقتف آثارها ومعانيها دون تمحيص أو تحليل، وإنما كان يضيف إليها من لدنه إضافات غلب عليها طابع الجدة والابتكار. وتوحي اللمحات والإشارات التي كان يسوقها حول العديد من المسائل التي عالجها إلى تمكنه، وامتلاكه لمفاتيح ما أغلق فهمه منها، وهو أمر ندر توافره لدى ناقد واحد من معاصريه.

2. إسعاف وأمير الشعراء أحمد شوقي:

بدأت صلة أديب العربية بأمير الشعراء شوقي عام 1927م، حين ألقى خطبته الشهيرة في مهرجان تكريم أمير الشعراء تحت عنوان: (العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي) ، وتوثقت عرى الصداقة بين الأديبين الكبيرين بعد ذلك، وأقبل كل منهما على الآخر إقبال الأخ على أخيه، يقول حسين شوقي نجل أمير الشعراء واصفاً تلك العلاقة: «ومن الأصدقاء الذين كان أبي يحبهم كثيراً إسعاف النشاشيبي، أديب فلسطين الكبير، كان أبي يحبه لتحمسه للإسلام فضلاً عن خفة ظله» [24] . واستمرت العلاقة بين الرجلين رائقة صافية لا تشوبها شائبة قرابة خمس سنوات (1927 – 1932) ، وهي السنة التي انتقل فيها أمير الشعراء إلى جوار

ربه. وقد رثاه إسعاف بكلمة رائعة بلغ أسلوبه فيها الذروة، وجاء النثر الموزون والشعر المنثور فيها ملتئماً مع سياق الكلمة ومضمونها، دونما عسف أو تكلف [25].

ومثلما استخلصنا من خطبة إسعاف عن شيخ الأثريين أبي العلاء المعري بعض الملامح والسمات التي تمتاز بها شخصية إسعاف الأدبية والنقدية، وأسلوبه الفريد في الكتابة والتعبير، فإننا سنسعى في حديثنا عن صلته بأمير الشعراء وكتاباته عنه إلى التعرف إلى المزيد من هذه الخصائص والسمات التي ينفرد بها أديب العربية عن سائر الكتاب والمبدعين الذين عاصروه في فلسطين أو سواها من الأقطار العربية الشقيقة.

وخلاصة ما ذهب إليه إسعاف النشاشيبي في خطبه وكتاباته أن شوقي هو شاعر الشعراء ورائد المجددين من غير منازع. والإمارة التي منحت له عن جدارة واستحقاق قليلة إذا قيست بما بلغه من علو الشأن ونباهة الذكر والتميز والفرادة بين الشعراء، فقد ضرب شوقي في الأرض، وطاف في الآفاق، ورأى من صور الطبيعة ومن بدائعها، ومن أخلاق الأمم وطبائعها ما لم تتهيأ رؤيته للكثيرين.

ويرى النشاشيبي أن شوقي قد جال بشعره في كل غرض، وقصد كل قصد، وأصاب من كل معنى، وطال نفسه في أكثر من قصيدة إلى ما لم يطله كثيرون من الشعراء. فما ضعف، ولا تخلخل ولا أسف، ولا فسدت أخيلته، ولا شاهت معانيه، بل قد يأتي أكثر مما يأتي بالجوهري الرائع، والبديع المتقن من حرّ الكلام وأفانين القول.

يقول في خطبته آنفة الذكر: «وغاص وحلَّق فأتى– كما قال ابن الأثير في حق حبيب– بكل معنى مبتكر لم يمش منه على أثر، وعرف الشرق وعرف الغرب، وقد عرف العصر (وقد جهل غيره عصره) ، واكتنه سر التقدم والتأخر، فأعطى الحقيقة في شعر، وهدى بالكلم الطيب ذي الحكمة إلى الطريق الأقوم»، ويضيف إسعاف قائلاً: «رب معان يُهمهم بها الزمان همهمة، ولا يفصح وتختلج في الصدور، ولا تبدو، ويجهلها العام وهي منه مقتربة، «وتغيب من الألمعي وهي لم تبعد عنه، وقد اجتذبتها قوة شوقي الشعرية، وبيَّنها أي التبيين للعالمين، فعجب الناس، بل ما كادوا يقضون العجب» [26].

لعل أهم ما يستنبطه القارئ من النص السابق أن النشاشيبي نهج نهج الجاحظ وابن رشيق وصاحب العقد الفريد، وسلك طريقهم، وتبنى رأيهم في قضية اللفظ والمعنى، فالمعاني حسب رأيه: «ملقاة على الطريق يعرفها العطار والبيطار، وهي إن لم تلتجئ إلى لفظ أنيق سري يقي ابتذالها، فَضُلَ الأبكمُ على قائلها» [27].

ومن هذا المنطلق يؤكد النشاشيبي أن شوقي ما جمله وخلده غير عربيته، ومتانة لغته وديباجته. يقول: «وإني أقسم بالقرآن وبلاغته وإعجازه وعبقريته وعجائبه التي لن تحصى

أن لو لم يكرم لفظ شوقي في الشعر كما كرمه معناه، ولو لم تشرق هذي الديباجة الشوقية المليحة ذلك الإشراق ما كان أحمد شوقي شاعر العربية الأكبر، وما كان ملك الشعر، وما كنتم أظفرتموه بهذا اليوم، ولكنه عاقل حكيم، عرف كيف يقول، وكيف يبني قصيده، ويشيد أهرامه يخلد فيها. وقد قلت قدماً: وما يفي المعاني من الدثور إلا متانة ألفاظها، وما يخدمها الدهور إلا تحقيق كلامها. والدهر أثبت ما كنت قد قلته» (28) .

ويبدو أن النشاشيبي نقب طويلاً كي يحقق بغيته، ويجوِّد أسلوبه، ويُحكم طريقته في التعبير فلم يجد من يضاهيه، أو يتوقف عنده غير القدامى. وقد أكد هذا المنحى بقوله: «إن في الانكباب على القول القديم العتيق خيراً كثيراً، بل إن فيه كل الخير، بل لا خير إلا عنده» (29) ولعل هذا هو السر الكامن وراء إعجابه بأبي العلاء المعري وأحمد شوقي، فقد عاش كل منهما حياته منكبًّا على آثار القدماء، مهتدياً بهديهم، مؤتماً بأمامتهم، وكان النشاشيبي أكثرهم إصراراً على السير في هذا الاتجاه، فراض نفسه على محاكاتهم والنسج على منوالهم، وما كانت كتاباته لتصدر إلا بعد مخاض عسير، وكان– كما وصفه تلميذه إسحاق موسى الحسيني– «يقضي ساعات في كتابة رسالة، يُجوِّد ما وسعه التجويد، ويؤنِّق ما وسعه التأنيق، ولا عجب بعد ذلك أن تفرد بأسلوب أنيق محكم ذي ألفاظ متينة متآخية ونسيج قوي» (30) ، يستشعر قارئه أنه من مكنون صدره، وذوب فؤاده ورهيف أحاسيسه ومشاعره.

وقد دفع هذا الاتجاه المحافظ نفراً من الباحثين والنقاد مثل: خليل السكاكيني، وأمين الريحاني، وإحسان عبد القدوس إلى اتهامه بالتقعيد والتقعير والانخراط في زمرة المقلدين الجامدين الذين يعزلون أنفسهم عن المجتمع، ويضعون بينهم وبينه حجاباً كثيفاً يجعلهم بمنأى عن همومه ومشكلاته وطموح أبنائه للتغيير والتطوير ومجاراة العصر.

على أن النشاشيبي كان موقناً –على ما يبدو– بأن ما قام به هو عين التجديد لا التقليد، وقد ردّ عن نفسه تهمة التقليد وفندها بقوله: «قد ألاقي الكاتب العظيم من المتقدمين، فلا يسيطر عليّ ولا أمشي وراءه، وله قوته وطريقته ولي ضعفي وطريقتي» (31) ، «فلست إذن مقلداً في القول أحداً، وإنما هي ألفاظ عربية مضربة عرفتها، وأسلوب عربي بيّن عَقِلتُه، وتلك جاءت، ثم كلام هو ذوب روحي ولين نفسي وخليقتي وطريقتي» (32) .

وأضاف إسعاف مبيناً ملامح هذه الطريقة وخصائصها بعبارات دالة موجزة فقال: «وفي الحق شدة وفي النفس قوة، وفيها وضوح ظاهرها كباطنها، وباطنها كظاهرها، فأنا أشنأ التزويق في الكلام، وأشنأ هذه الاستعارات المخسرات، وأبغض بديع الجماعة، فلا أعرج إلا على القول المبين، ولا يجيء مني إلا الجملة البيّنة، وكرهت الغريب الذي ذموه

لكرهي الاستعارة الممقوتة» [33] .

هل صدق النشاشيبي فيما قال؟! وهل عكست خطبه ومقالاته حقيقة مشاعره ومكنونات نفسه، وما جلبت عليه طبيعته من العواطف والأحاسيس المستعرة؟! أظن الأمر كذلك، فهو في كل ما كتب ينطق بما يعتمل به فؤاده، وتمتزج به أحاسيسه، ولو أننا تأملنا أي قطعة من نتاجه لوجدنا أنه يسودها جو نفسي هو مزيج من الغضب والعتب والثورة والحزن والألم والغيرة المشوبة بالحسرة على مجد سلف، ووطن يتهدده الضياع والاستلاب، ولعل مرثيته الرائعة لأمير الشعراء أحمد شوقي خير شاهد على اتجاهه وأسلوبه في الكتابة والتعبير، وفيما يأتي مقطع من هذه المرثية، نضعه بين يدي القارئ لعلَّه يتلمس بنفسه بعض المرتكزات التي يستند إليها النشاشيبي في إرساء معالم مدرسته النثرية. يقول: [34]

بلبلُ الكرمةِ ولَّى. أين غابَ البلبلُ؟! أين غاب البلبلُ؟!

غـــادرَ الطيرُ ثكالى في حنينٍ وأنينٍ وشـــــجنْ.

زهرُ الكرمةِ يبكـــي بدموعٍ ظاهراتٍ في الصبـــاح.

فننُ الكرمةِ آس لا اهتـــزازٌ لا ارتيـــاحٌ لا طـــربْ.

بهجة زالتْ وجاءتْ وحشةٌ وعرا الكرمةَ حزنٌ لا يريمْ.

مدرهُ العُـــرْبِ قَضَـــى. مدرهُ العـــرب قَضَـــى.

يـــا فتـــاةَ العُرْبِ فالبَســـي ثوبَ الحِـــدادْ.

فالمقطع –كما يلاحظ– تشيع في أرجائه عاطفة متقدة مشحونة بالحزن والكآبة، وتمتاز ديباجته بالصياغة المتقنة والعبارات المحكمة. وقد زادها طلاوة تلك الموسيقى التي تنبعث من بين سطورها وعباراتها التي صيغت على هيئة الشعر المنشور، وهو اتجاه ابتدعه إسعاف في تلك الفترة المبكرة في أدبنا الفلسطيني، وأظن أنه كان إرهاصاً لظهور حركة الشعر الحر فيما بعد.

ثالثاً- إسعاف الوطني الغيور:

قال أحمد حسن الزيات صاحب مجلة: (الرسالة) في نعيه لإسعاف: أخلص الله، فأخلص لقرآنه وأولع بمحمد فأولع بلسانه» [35] . هذه العبارة على إيجازها تكشف لنا ملمحاً رئيساً من شخصية إسعاف وهو غيرته ومحبته وإخلاصه لدينه ووطنه ولغته العربية، وربما كان حديثه عن اللغة العربية وابتداؤه بها –غالبا– مدخلاً للتعبير عن حماسه للإسلام وعشقه للوطن، بل هو يرى في العربية والإسلام شيئاً واحداً. قال في خطبة له ألقاها في حفل تأبين

عبد المحسن السعدون عام 1919م:

« قالــــــوا ابكه وإلاّ غضبت عليك عروبتـــــــك

أعوذ بمحمد أعوذ بالعربية من غضب العربية

وهل لي في حياتـــــــــي ومماتي إلا هـــــــي

أنا خادمها أنا عبدها أن عبـــــــــــد لغتـــــها

أنــــــــــا عبد قرآنها أنا عبد محمَّدِها

أنـــــــا سيد لكل حر سيد بهذه العبودية

أعـــــــــوذ بالعربية من غضب العربية » (36)

وقال مفتتحاً خطبه في ذكرى معركة حطين: «ذهبت بلادُ محمد، ذهب قرآنُ محمد، ذهبت لغة محمد، وأي معنى للكون ذهب منه اسم محمد (37) ، «ومحمد هو القوة العربية المتجسدة، والعربية هي محمد قوة عربية معنوية أبدية وهي (عربية القرآن ولغة القرآن) (38).

إن من يطالع آثار النشاشيبي وكتاباته يدهشه ذلك الوله الصوفي بالإسلام والقرآن، ونبيه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، كما يدهشه تلك اللغة الرائقة المصفاة التي كان يجهد نفسه في صياغة تعبيرها وانتقاء ألفاظها، كيما يرتقي إلى مقام المصطفى الأسمى، ومكانته الجليلة وفصاحته التي لا تجاري. يقول إسعاف: «لكل أمة نابغة ولكل قوم عصر ذهبي. ونابغة الأمة العربية، بل أمم هذه الكرة الأرضية قاطبة هو محمد بن عبد**الله**، النبي العربي، وقد جاء في أكرم عصورها، وفي إبّان كمال اللغة العربية، فتقدم كل بليغ، وأخرس كل منطيق» (39) .

ويقول في موضع آخر منوهاً بفصاحة القرآن وبلاغته: «وجاء مع هذا النبي العظيم كتاب كريم. بلاغة العرب الخّلص العرباء، وفصاحة مصاقع الخطباء وخناذيذ الشعراء متحاقرة متضائلة بين يدي فصاحته» (40) .

من أجل ذلك أكثر النشاشيبي من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي، ولا يكاد يخلو مقال أو خطبة له من آية أو حديث يستشهد بهما في براعة نادرة حتى يحسب الذي لا يحفظ القرآن أن الكلام كله جزء من سياق الخطبة، ومن كلام الخطيب، كما تجلَّت أيضاً باستشهاده بالثلاث أو الأربع آيات لا يفصل بينهما في معظم الأحيان إلا أدوات العطف» (41) .

ومن المؤكد أن وراء هذه البراعة في التمثل بكتاب **الله**، وأحاديث رسول **الله** صلى **الله**

عليه وسلم حسّ إيماني عميق، ونزعة دينية متأصلة، ولّدت لديه شعوراً مناسباً بالإجلال والتوقير لصاحب الرسالة. وقد بلغ توقيره للرسول الكريم حداً جعله يعيد طباعة ملزمة من كتاب له ثلاث مرات حتى يضع اسم الرسول صلى الله عليه وسلم في موضعه اللائق به. يقول عجاج نويهض واصفاً تلك الحادثة: «طبع إسعاف كتاباً في مطبعة دير الروم الآرثودكس في القدس، وأظن أن اسمه كان (سير العلم وسيرتنا معه) ، ولما طبع الملزمة لاحظ أن اسم النبي عليه السلام ورد في السطور الأخيرة في الصفحة التي إلى اليمين فأبدل الملزمة كلها حتى جعل كلمة محمد تقع وسط السطر تماماً، ثم طبعت الملزمة، ثم نظر فرأى أن هذا كله لا يليق، فطلب أن تُصفَّ الملزمة وتُطبع للمرة الثالثة، بحيث يقع اسم النبي صلى الله عليه وسلم في وسط السطر الأول الأعلى من الصفحة بين هلالين تجلَّة وإكراماً. فاضطر إسعاف إلى أن يقوم بتكاليف طبع ثلاث ملازم من أجل هذه المسألة، وهي مشهورة عنه، ومن يراجع الكتيب يجد مصداق هذا في تلك الصفحة» (42) .

واستطاع إسعاف بحسه الإيماني العميق أن يدرك طبيعة الصراع الذي شهدته منطقتنا منذ بداية هذا القرن، ففي رأيه أن العداء الذي يكنه الغربيون للعرب والمسلمين ليس جديداً أو طارئاً، وإنما هو قديم ومستحكم، فالشرق والغرب كما قال: «لم ينفكا منذ الدهر الأقدم يتنازعان رداء السؤدد ويتجاذبان ويتحاربان في ميدان المجد ويتباريان. وكل يقدح في ألا تخفق فوق قلل الكرة الأرضية إلاّ رايته. وللغرب في هذا الوقت الدولة على الشرق، فهو العالي وهو السائد، وإنما رفع الغرب فوق الشرق درجات علم قد خادنه العمل، وجدٌّ جادٍّ قد عادى الخور والكسل» (43) .

من أجل ذلك نبه إسعاف أبناء جلدته إلى المخاطر التي تتربص بهم، وتهدد وجودهم وكيانهم من طرف المستعمر الغربي الذي أعتزم على أن يقذف بهم في هوة دريدية (44) من الاسترقاق والعبودية (45) . ورأيناه يحثهم على أن يأخذوا حذرهم ويتعلقوا بأسباب القوة، ويسلكوا الدرب نفسه الذي أوصل الغربيين حتى أضحوا وهم على ما هم عليه من القوة والغلبة والمنعة. يقول: «إذا لم يأخذ الشرق المفرط في أمره، والمعرض في حاجته حذره، وينبل للكوارث نبالها، ويتذرع لصدم الشر بمثل ذرائع أخية– وأن الحديد بالحديد يفلح– ويعلم ويدأب، ويفر فرار السليم من الأجرب من الجهل الذي آخاه. والجهل مرد من يؤاخيه، ومن العجز الذي صافاه. ومن العجز والتواني نتجت الهلكة إذا لم يدَّرع كل ذلك، فقد يأذن الله باضمحلاله. وكتب الكاتب على اللوح حكم زواله. وهيهات هيهات أن يرد عليه التلهف والتحسر إذا ولى الأمر وأدبر» (46) . وسبق لإسعاف أن صاغ المعاني شعراً في قصيدة له نشرها عام 1910م في مجلة النفائس بعنوان: (فلسطين والاستعمار الأجنبي) ، وقد حذر فيها أبناء قومه وأنذرهم من سوء العاقبة التي تنتظرهم إذا لم يتكاتفوا، ويزيلوا عن أعينهم

أغشية الوهم ويطهروا نفوسهم من القدرية والاتكال والتخاذل يقول:

إنَّ الاستعمارَ قد جازَ المدى	دونَ أن يعدوهُ عن سيرٍ عَداء
إن هذا الداءَ قد أمسى عياء	فتلافوه سريعاً بالدواء
إنها أوطانُكم فاستيقظوا	لا تبيعوها لقومٍ دخلاء
كيفَ ترجُون حياةً بعدها	ونعيماً وهناءً وصفاء
فاعلموا يا قومُ إن لم تعلموا	إن عُقباكم هلاكٌ وفناء
واهجُدوا باللهِ من رَقدتِكُمْ	وارفعوا عن أعينِكم هذا الغِشاء

وعبَّر إسعاف عن مقته الشديد للاستعمار الغربي، وكراهته له بعد ما اتضحت نواياه، وخالفت أفعاله ما أشيع عنه من تسامح وتقدم وتعلق بالحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، وبعدما عمّت شروره وآثامه بلاد العرب والمسلمين، ولا سيما وطنه فلسطين، يقول في خطبته التي ألقاها في ذكرى معركة حطين: «نور الدين، صلاح الدين إن القوم قد عادوا وأعادوها بعد عصور جذعة. اللنبي، غورو، قد أتانا ما قلتما، قد فهمناه، قد عقلناه، إنها لم تنته، إنها لم تنته أيها الغربيون. هذي بلادنا هذي ديارنا، زايلوا بلادنا. غادروا بلادنا. إنا لكم ولوجوهكم (شاهت وجوهكم لا حيَّاها الله وجوهاً)، ولمدنيَّتكم الكاذبة المزورة، ولظلمكم ولجوركم ولانتقامكم من القالين، من المبغضين، من المنكرين، من الجاحدين، من الكافرين» (47).

ولم يملك إسعافُ بعد أن اشتدت وطأة الاستعمار الغربي، وتصاعدت إجراءاته القمعية، وواصل سياسته التعسفية الرامية إلى تهويد فلسطين واقتطاعها من جسم الأمة العربية إلا أن يتوجه بالدعاء والاستعطاف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبارات يسودها قدر غير قليل من اليأس والإحباط والكآبة، فكتب مقالاً بعنوان: (يا رسول الله) في مجلة الرسالة وذيّله بتوقيع مستعار (ن) تحرزاً وخشية من ملاحقة سلطات الانتداب البريطاني واضطهادها له، وقال في ختامه: «يا محمد، يا محمد لقد ضامنا هذا الزمان الإفرنجي حتى ذاك الذي ضربت عليه الذلة والمسكنة، وكان ضعفنا ولؤمنا وتعادينا وصدعاتنا وغضبك علينا، غضبك على الخلف الخالف من أجل ذلك أقوى معين للضائمين، فإن لم تمنَّ على المنتمين إلى عربية قرآنك العربي بشيء من عطف ورضا. هلك يا سيدي أبا القاسم أتباعك، خدام (كتابك)، خدام (لسانك)، خدامك في الهالكين. يا سيد الوجود، يا رسول الله، يا أبا بكر الصديق، يا عمر الفاروق، يا ذا النورين، يا أبا الحسنين، إن الدهر قد جار على قوم عرب (48).

وقال في موضع آخر من خطبة له بعنوان: البطل الخالد صلاح الدين: «محمد بن عبدالله، محمد بن عبدالله، نحن عبيدك، نحن عبيد عبيدك، نحن منتمون إليك. منتمون إلى قرآنك، منتمون إلى دينك. منتمون إلى عربيتك، فماذا تريد منا؟! هل تريد أن نبيد؟ أن يبيد قرآنك؟ أن تبيد لغتك؟ أن تضيع بلادك أن تهلك أمتك؟! محمد. أدركنا، أنجدنا، خلصنا، أنقذنا، نجنا» (49) .

وواصل إسعاف هجومه على سلطات الانتداب البريطاني وربيبتها الحركة الصهيونية ومقاومته لهما بالتصريح تارة وبالتلميح تارة أخرى. وكان يهتبل أي فرصة تلوح له ليعبر عن أحاسيسه الوطنية الصادقة، ومشاعره الدينية حاثاً أبناء شعبه على الصمود والمقاومة، ومقارعة العدو الغاصب، ففي معرض تدليله على نزعة التفاؤل والأثرية عند أبي العلاء. أورد أمثلة وشواهد شعرية تشير إلى كراهة المعري للموت وحبه للحياة واقباله عليها ومنها قوله:

ولم أردِ المنيةَ باختياري ... ولكنْ أوشك الفتيانُ (50) سحبي
ولو خُيِّرتُ لم أتركْ محلي ... فأسكنُ في مضيقٍ بعد رَحْبِ

غير أن النشاشيبي يستدرك في فقرة لاحقة وتحت عنوان: (موت البطولة)، ويعني استشهاد المجاهدين والمرابطين ليؤكد على لسان المعري أن هذا الضَّرب من الموت يغاير الضرب الأول ويختلف عنه، لأنه مما ترغبه النفوس، وتحرص عليه. يقول النشاشيبي: «هناك ضرب من الموت لا يكره ولا يذم، بل يُحبُّ ويعظم، وهو موت البطولة في الوغى، وقد حرض الشيخ عليه، والحرب شرعة العربي:

إذا المرءُ لم يغشَ الكريهَة أوشكتْ ... حبالُ الهوينى بالفتى أن تقطَّعا

والجهاد دين المسلم: كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله العليم وأنتم لا تعلمون. وجاهدوا في الله حق جهاده.

وإذا كان الحال كما قال الشيخ:

وما سَلُّ المهنَّدِ للتَّوقي ... كَسَلٍّ المشرفيةِ للتَّشفي

فالموت يومئذ خير من ألف حياة، خير من الخلود:

من السَّعد في دنياكَ أن يهلك الفتى ... بهيجاءَ يغشى أهلُها الطَّعْنَ والضَّربا (50).

وفعل إسعاف الشيء نفسه في مرثيته لأمير الشعراء أحمد شوقي، فقد ضمنها عبارات أظهر فيها كرهه للاستعمار وبغضه له، وعرىّ حضارته الزائفة القائمة على القهر والغدر والقتل والاغتصاب ومنها قوله:

«من لغربٍ عاسفٍ مغتصبِ

لصَّ حـــــقَّ العُرْبِ في الصبـــــحِ المبيـــن

يا حليفاً والعاً ما إنْ له

أبد الآبــــــــادِ عهــــــدُ أو يميـــــن

خاس هذا الغرب بالعهد، ولم يتئب من دنس الغدر اللئيم داعر فسق وشر كله، دعر جسّم مخلوقاً بهيم» (51) .

وهكذا يمكن القول إن كتابات إسعاف كلها: مقالاته وخطبه ومراثيه وأماليه كانت تطفح بحب العروبة والإسلام، والتعلق بهما، وكانت قضية وطنه المهدد بالاستلاب قد ملكت عليه لبّه وسيطرت على كيانه، فَشُغِلَ بها، وكانت هاجسه الذي أرقه طوال حياته، وصدر إسعاف في كل ما كتب وأملى عن وعي عميق، وإحاطة شاملة، وبصيرة نافذة، وقدرة تحليلية فائقة على التنبؤ والاستنتاج واستكناه آفاق الصراع ونتائجه، وهي قدرة لا يملكها سوى الموهوبين والقادة الملهمين. والمدهش أن مواقف إسعاف وآراءه حيال الصراع الذي فرضه الاستعمار على أبناء شعبه الفلسطيني لم تتبدل ولم تتلون، ولم يطرأ عليها أي تغيير بسبب الظروف والأهواء والمصالح والتقلبات السياسية، وإنما ظلت مبادئه ثابتة، وقناعاته راسخة بأن الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأهداف والغايات ونيل الحقوق المشروعة لا تخرج قيد أنملة عما رسمه لنا أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

ولا يبنـــي الممالــكَ كالضَّحـايــا ولا يُــدني الحقـــــوقَ ولا يُحِـــقُّ

ففـــي القتلـــى لأجيـــالٍ حيـــــاةٌ وفي الأســرى فِــدىً لهمُ وعِتْـــقُ (52) .

رحم الله إسعافاً وجعله في جنان النعيم مع الخالدين، فقد عاش حياته مخلصاً لوطنه، غيوراً على دينه، وفياً صادقاً مع نفسه ومع الآخرين، ورحم الله صديقه الشاعر محمد عبد الغني حسن الذي قال في رثائه:

لم تَمُــتْ مِيتَــةَ الجبــانِ ولكــنْ مِــتَّ في العلــمِ مِيتةَ الشُّهــداء (53) .

الهوامش:

1. مجلة الرسالة، العدد 761، فبراير 1948م، ص: 113.
2. عجاج نويهض، ثلاثة أقطاب في الأدب والقومية. الريحاني وإسعاف والثعالبي، مجلة القلم الجديد، عمان، ع 3، تشرين ثان، 1952م، ص: 28.
3. محمد إسعاف النشاشيبي، سبيكة العسجد في لغة محمد، مجلة النفائس، ج2، شباط، السنة الثامنة، 1927م.
4. نفسه، والصفحة نفسها.
5. نفسه والصفحة نفسها، وأنظر حديثه عن اللغة أيضاً في مجلة الرسالة، ع: 604، السنة 13، 29/ 11/ 1945م، ص: 98.
6. مجلة الرسالة عدد 659، 18 يناير 1946م، ص: 199.
7. نشرت هذه الردود في مجلة الرسالة، الأعداد: 271 (12/ 9/ 1938م) ، 272 (19/ 9/ 1938م) ، 274 (3/ 10/ 1938م) ، 277 (1938م) ، 280 (14/ 11/ 1938م) ، 283 (5/ 12/ 1938م) ، 284 (13/ 12/ 1938م) ، وأعيد نشرها في كتاب د. إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، 115 – 165.
8. النشاشيبي، كتاب المبشرين، أغلاطه في العربية، مجلة الرسالة، ع: 283 (5/ 12/ 1938م) السنة السادسة، ص: 1972.
9. نفسه والصفحة نفسها.
10. نفسه، ع: 271 (12/ 9/ 1938م) السنة السادسة، ص: 1494.
11. نفسه والصفحة نفسها.
12. نفسه، ع: 605 (فبراير، 1945م) ، السنة 13، ص: 120.
13. د. إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 44.
14. نفسه، ص: 25 وأنظر محمد إسعاف النشاشيبي، كلمة في اللغة العربية: ص: 53.
15. نفسه، ص: 30.

16.محمد إسعاف النشاشيبي، أبو العلاء المعري، مجلة الرسالة، ع: 605، ص: 122.
17.نفسه، ص: 123.
18.نفسه، ص: 120.
19.محمد إسعاف النشاشيبي، كلمة في اللغة العربية: ص: 95.
20.مجلة الرسالة، ع: 609 (5/ 3/ 1945م) ، ص: 218.
21.نفسه والصفحة نفسها.
22.نفسه، ع: 606، 2فبراير، 1945م، والسنة13، ص: 143.
23.نفسه، ع609، ص: 217.
24.حسين شوقي، أبي شوقي (القاهرة: مطبعة مصر، 1947م) ، ص: 136 ولمزيد من التفصيل حول علاقة أمير الشعراء بأديب العربية إسعاف النشاشيبي خاصة، وأدباء فلسطين عامة، أنظر، د. عادل أبو عمشة، إسعاف النشاشيبي وشوقي من كتاب أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 175 – 186.
25.أنظر د. موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 25.
26.النشاشيبي، العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي، ص: –26 27.
27.النشاشيبي، كلمة في اللغة العربية، ص: 49 – 61.
28.النشاشيبي، العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي ص: 29.
29.النشاشيبي، كلمة في اللغة العربية، ص: 57.
30.د. إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 57.
31.النشاشيبي، اللغة العربية، والأستاذ الريحاني، ص: 33.
32.نفسه والصفحة نفسها.
33.نفسه، ص: 34.
34.النشاشيبي، البطل الخالد والشاعر الخالد أحمد شوقي، ص: 9 – 18.
35.مجلة الرسالة ع: 761، 2/ 11/ 1948م، ص: 130.
36.النشاشيبي العراق في سبيل العربية (القدس مطبعة العرب، 1932م) ص: 3.
37.النشاشيبي البطل الخالد، ص: 94.

38. نفسه، صفحة: 79.

39. النشاشيبي، كلمة في اللغة العربية، ص: 89 – 90.

40. نفسه والصفحة نفسها.

41. د. وائل أبو صالح، د. إبراهيم الخواجا، فن الكتابة عند اسعاف، من كتاب أبحاث عن أديب العربية ص: 115.

42. عجاج نويهض، مرجع سابق، ص: 128.

43. النشاشيبي، الشرق والغرب، مجلة النفائس. ج1، كانون الثاني، 1921م، السنة الثانية، ص: 2 – 3.

44. نسبة إلى دريد بن الصمة الذي قال (إن القضاء قاذفي في هوة) .

45. النشاشيبي، الشرق والغرب مجلة النفائس، مرجع سابق، ص: 2 – 3.

46. نفسه، ص: 2 – 3.

47. مجلة النفائس العصرية، السنة الثانية، سنة 1910م، المجلد الثاني، ص: 576.

48. النشاشيبي، البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي، (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1351هـ، 1932م) ، ص: 109 وما بعدها.

49. مجلة الرسالة، مجلد 7، عدد 324، (18/ 9/ 1939م) ، ص: 1819.

50. النشاشيبي، البطل الخالد صلاح الدين مرجع سابق، ص: 99.

51. النشاشيبي، أبو العلاء المعري، التفاؤل والأثرية عند الشيخ، الرسالة، ع: 607 (19/ 2/ 1945م) ص: 161.

52. النشاشيبي، البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي، ص: 9 وما بعدها.

53. نفسه والصفحة نفسها.

54. كمال الريماوي، حياة إسعاف. من كتاب أبحاث من أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 43.

رابعاً- إسعاف المجادل الحصيف:

(نماذج من مساجلاته مع معاصريه):

وصف الدكتور أحمد فؤاد الأهواني صديقة الأثير محمد إسعاف النشاشيبي بقوله: «عرفت إسعافاً منذ بضع سنين، فكان مجلسه حلقة تضم صفوة الأدباء والشعراء، وهو فيهم درة العقد أو كأنه الشمس تحف به الكواكب. وقد قيل إن الأدب أن تجمع من كلّ شيء بطرف، وكان هذا شأن إسعاف النشاشيبي، فهو أعلى من المحاكاة، وأسمى من التقليد يحدثك في الفقه والشريعة وآراء المعتزلة وعلماء الكلام، ونظريات الفلاسفة والحكماء وطرائف الكتاب ونوادر الشعراء مع امتلاك ناصية العربية، وإلمام بالأدب والعلم والفلسفة إلماماً يدلُّ على طول الباع وعظيم المنزلة» (1) .

والدكتور الأهواني صادق فيما يقول، فالنشاشيبي هو أديب فلسطين بلا مدافع، وهو أديب العربية وفارسها المجلي، قضى حياته مدافعاً عنها، وقصر جهده وفكره ووقته وماله على خدمتها، وعلى خدمة أدبها وتراثها، وكأنما هو نصير قليل النظير، أو عاشق متيم يسهر –كما وصفه صديقه الأمير شكيب أرسلان– الليالي يرعى نجوم التحقيق والبحث والتمحيص في جزالة لفظ، وبلاغة معنى، وسداد حجة (2) .

وقد استطاع إسعاف بهذه المواهب المتنوعة أن يشقَّ في عالم الفكر طريقاً طويلاً لا يسلكه إلا من تحصَّن مثله بالصبر الدؤوب والجلد الموصول، كما استطاع بذهنه الموسوعي وثقافته العربية الأصيلة أن يسمو بعالم الأدب إلى مقام الزعامة الصميمية التي تتوخى الأصالة، وتتحرى الصدق، وتعزف عن البهرج الكاذب، والمظاهر الدعائية الخادعة.

لقد كانت حياة أديبنا سلسلة طويلة من الكفاح على اختلاف أنواعه (3) ، فقد صارع الزمن والأحداث والسلطات، وجهر بالحق، وناوأ أهل الباطل، فضاقوا به وحرموه من وظيفته، فخلا للأدب والعلم مخلصاً له، وعاش حياته متفرغاً للفقراء والكتابة، فهو إما أن يستزيد، وإما أن يزيد، وقد أسعفه في ذلك قدرة عجيبة ونفسٌ طُلَعةٌ وموهبةٌ أصيلة زادها الصقل والتجربة والطموح تألقاً ومضاء. ذكَّرنا بجدِّ أسرته الأمير ناصر الدين النشاشيبي، ناظر الحرمين الشريفين الذي كان معروفاً بحزمه وعزمه وشغفه بالعلم والأدب، واصلاحاته الواسعة في المدينة المقدسة (4) .

وحياة إسعاف كشخصيته، حياة خصبة حافلة صنعها بفكره وقلبه، وسخرها لنفع وطنه وأمته، وأعماله وفيرة منوعة لا تتسع الصحائف لاستقصائها، فلم يكلَّ يوماً عن الفكر والعمل منذ أن كان صبياً يتلقى العلم، إلى أن توفاه الله، فقد كانت رحلة الصيف إلى دمشق،

ورحلة الشتاء إلى القاهرة، حيث كان يطالع فيهما كل ما حوته المكتبات العامة والخاصة من كتب مطبوعة أو مخطوطة، كما كان يعتلي منابر الخطابة في النوادي والمحافل فيعظ ويعلم، ويلقي المحاضرات، ويحرر في الصحف والمجلات، ويكتب المقالات وينشرها ويدافع عن العربية والإسلام، ويردُّ على منتقديه، ويراسل زعماء الإسلام ويبادلهم الرأي، وكان بيته في القدس مثابة الأضياف، وكعبة القصاد والزائرين، ومنتدى رفيعاً للعلم والأدب. فقد كان من نجومه المتردِّدين عليه أدباء أعلام مثل: العقاد والثعالبي ومحمد سعيد العريان [5] ، وأحمد حسن الزيات وعبد الوهاب عزام وأمين الريحاني ومحمد كرد علي [6] ، ومصطفى وهبي التل وغيرهم. وكذلك كان مجلسه حيثما كان متعة العقل والقلب واللسان، فيه سلافةُ النديم، وريحان اللبيب، ونقل الأديب، ونوادر اللغوي، وطُرَفُ المؤرخ.

يقول الأستاذ صلاح الدين المنجد واصفاً مجلسه في (الأريان بالاس) في دمشق: «كانت حلقته في الأريان بلاس مهوى نفوس الذين يتذوقون الفصاحة، ويرغبون في سماع محاسن العربية. ينفضُّ أناس، ويُقبل أناس وهو لا يمل، يسمعهم من طريف أدبه، ويروي ظمأهم من روائع علمه، ويأسرهم بتهذيبه وتواضعه وسعة معلوماته [7] ، «فما كانت تذكر مسألة إلا كان له عنها جواب، ولا تثار مشكلة إلا أشرق له فيها رأي، ولا تروى حادثة إلى ورد له عليها مثل، ولا يحضر ندوته أديب مطلع إلا جلس فيها جلسة المستفيد» [8] .

وقد كانت للنشاشيبي صولات وجولات، وكانت له مساجلات كثيرة مع نفر من معاصريه على صفحات النفائس والبلاغ والسياسة والكوكب وغيرها، وكانت ردوده وتعقيباته نموذجاً يقتدى في إقامة الحجة، وعرض الأدلة بعيداً عن السب والقدح واللمز والغمز والتعريض، فقد كان –رحمه الله– عفًّا في نقده، نزيها في عبارته، لم تصدر عنه كلمة نابية أو قول لاذع في حق مخالفيه، بل كان يعترف لهم بالفضل، ويذكر ما قدموه من مجهود طيب، وما كان لهم من أثر محمود. وهذه سمة الخاصة من العلماء الذين تخلقوا بأخلاق القرآن وتجملوا بهدية، وتحلُّوا بفضله وأدبه.

وتضم مساجلات النشاشيبي مع معاصريه حصيلة وفيرة من التعليقات والردود والتعقيبات لكنها –للأسف– ما زالت مخبوءة في الصحف والمجلات القديمة– ولا يكاد أحد يعرفها سوى نفر قليل من الباحثين؛ لأنها كتبت بأسماء مستعارة مثل [9] : (ن) ، و (القارئ) و (السهمي) ، و (أستاذ جليل) ، و (أع) و (أزهري المنصورة) . وهي تتضمن جوانب شتى في الأدب والنقد والفكر واللغة والسياسة والاجتماع، الأمر الذي يكشف لنا أبعاداً جديدة من شخصية أديبنا اللامع، ويبرز مكانته الأدبية المرموقة [10] ، ويطلعنا بالتالي على المستوى الرفيع الذي بلغته الثقافة العربية الفلسطينية في فترة الانتداب البريطاني.

ولعل من أهم ما تكشف عنه هذه المساجلات أن أديبنا إسعافاً لم يكن دائماً كما تصوره كتاباته ذلك الأديب الصارم والباحث الرصين، بل كانت تخالط كتاباته أحياناً مسحة من الدعابة والظرف، من ذلك على سبيل المثال أن صديقه الصحفي المعروف، أحمد حافظ عوض كتب إليه من باريس، رسائل وصفها إسعاف بأنها رسائل أحمدية ذات بساط أحمدي، وأخبره فيها أن باريس اليوم ليست باريس، وأنه ما رآها وهو شيخ قارب الستين كما آنسها وهو في شرخ الشباب. فأجابه إسعاف مهوناً عليه الأمر حيث قال: «ولو تذكر صاحب الكوكب –يعنى أحمد حافظ– أبا تمام لأعطاه هذه الأبيات العبقريات فجاءت في الختام من آيات التمثيل الباهرات، وها أنذا أرسل بها إليه لينشدها في كل صبح ومساء ما أقام في باريس.

لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ	**خفَّ الهوى وتولَّتِ الأوطارُ**
كانت مجاورةَ الطلول وأهلها	**زمناً عذابَ الوردِ فهي بحارُ**
أيام تُدمي عينَه تلك الدُّمى	**فيها وتقمرُ لبَّهُ الأقمارُ**

وأضاف إسعاف قائلاً: «وأنا ما ذهبت إلى باريس فلست أعرف حالها، فهل يصدق الخبر فيها؟ العلم عند الأحمدين العارفين: أحمد شوقي، أحمد حافظ عوض، أحمد حسن الزيات، العلم عند العارفين (11) .

وحين أصدر الأمير شكيب أرسلان كتابه حاضر العالم الإسلامي، وُجِّه إليه نقد كثير؛ لأنه ضمنه حواشي كثيرة طغت على متن الكتاب، فلم يجد من يبرر له هذا الصنيع ويدافع عنه غير النشاشيبي الذي بعث إليه رسالة طريقة يقول فيها: «ذكَّرتني هذه الحواشي بقولين لإمامين:

قيل لأبي بكر الخوارزمي عند موته: ما تشتهي؟ قال: النظر في حواشي الكتب. وقال أستاذ الدنيا جارالله: الزيت مخ الزيتون والحواشي مخخة المتون»، فسر الأمير أرسلان بهذين الشاهدين وبعث إلى إسعاف برسالة يقول فيها: «شفيت غليلي بهذين الشاهدين اللذين جئت لي بهما على فائدة الحواشي، ومن كان يقدر أن يأتي بهما غيرك؟ لله درك، فلو أنجدتني بجيش مجرٍ ومالٍ دُثر ما أحسستُ بها عندما قرأت ذينيك الشاهدين» (12) .

ومن دعاباته أيضاً ما رواه صديقه صلاح الدين المنجد أثر عودته من دمشق ومشاركته في مهرجان حكيم المعرة أبي العلاء المعري حيث قال: «هذا الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي، إنه نسيج وحده في كل شيء: في أسلوبه المتين، وفي حديثه المبين، وفي إلقائه النادر، وفي سعة علمه، وكثرة محفوظه. فلا يشابهه أحد، ولا يجاريه أحد.

قابلته بعد عودته، أسأله عن صحته، آملاً ألا تكون هذه الرحلة الطويلة المتعبة المستعجلة قد أضرَّت به، فأجابني فرحاً:

- لقد كشفت سراً في معرَّة النعمان!
- سر؟
- نعم، سر عظيم ما كنا نفطن إليه لولا أن رأينا بلدة أبي العلاء.
- وما هذا السر؟
- كان أبو العلاء منقطعاً عن أكل اللحم، وكان يمنُّ علينا بذلك، فلما رأيتُ أن في المعرة التين، التين الحلو، المشوب بالعسل المُصفَّى، الكبير الحجم، وأن فيها العدس المغذي، اللذيذ المفيد، قلت: ما اللحم أمام تين المعرة وعدسها؟ أما لو كان لي معدةٌ قوية كمعدة أبي العلاء وكنت في المعرَّة، آكل من تينها وأطعم من عدسها، إذن لآليت ألا أذوق ما حييت لحماً، فلا يمنُنْ علينا أبو العلاء، فقد كشفنا السر! ثم أطرق وقال:

الحق أن أبا العلاء شيء عظيم. لقد أحب الحياة، وودَّ لو عاش ألفاً من السنين. وكان متفائلاً كأعظم المتفائلين. وكان يكره الموت إلا موت الأبطال الخالدين. وكان مجنوناً جُنَّ بالقرآن، وجنَّ باللغة العربية، فعرف من شواردها، وفصيحها وصرفها، ونحوها، وشعرها ما لم يعرفه أحد. ورأت هي حبه، فأطاعته وانقادت له، فملكها، وأكثر من ترداد محاسنها لأنه يحبها» (13) .

وينقل أحد الأدباء المقادسة متندراً (وشاية) في محاولة للإيقاع بين إسعاف النشاشيبي وصديقه الأثير الدكتور زكي مبارك يقول: دكتورنا «المبارك». لا أدري أي شيطان يحركني لأوقع بينك وبين أديب كبير تحبه أعنف الحب، وتعجب به أبلغ الإعجاب، ويخلع عليه قلمك الصوال أبلغ آيات الثناء.

وأحب –قبل كل شيء– أن أطمئنك فأؤكد لك أني مثلك لا أستسيغ مذهب المجلات التي ترى من البراعة أن تؤرث الخصومات بين رجال الأقلام ليتفرج القراء، وإني أيضاً لا أحب أن يختصم الأدباء فيما بينهم ليقدموا الغذاء لأهل الفضول. ولكني مع ذلك لا أتردد في أن أنقل إليك هذه التي أزعم أنها تمسُّك من قريب أو بعيد.

في بهو «الملك داود»، وفي متوع الضحى من كل يوم ينتشر على الموائد الأنيقة المترفة فريق من صفوة الشباب المتنور الراقي، ينعمون ساعة بحديث الأدب والسياسة، ثم يتفرقون على غير ميعاد، ومن عادتي كلما رأيت الأستاذ الكبير إسعاف النشاشيبي بك أن أتسلل إليه برفق وهوادة، و (وأطب) على مائدته بدون بلاغ ولا استئذان. وسرعان ما ينطلق لساننا في التحدث عن الأدب والأدباء. وسرعان ما يجري في كلامنا أسماء المازني والعقاد

وطه حسين والزيات وزكي مبارك.

وأشهد أن الأستاذ النشاشيبي محب للدكتور مبارك معجب بأدبه ونشاطه، ولكن الشيء الذي يبلبل بالي، ويحير لبّي أن هذا الباحث اللغوي الجليل لا يذكر اسم زكي مبارك إلا مقروناً بكلمة «الخبيث».

أقول له: الدكتور مبارك شعلة نشاط يا سيدي، فيجيبني أجل أنا معك بأن الخبيث زكي مبارك شعلة وهاجة من النشاط فكنت أعجب لذلك، وأذهب من توي أفتش على معاجم اللغة لأطمئن عن أن لفظة الخبيث ترادف لفظة الدكتور أو تدل على معنى يقاربها، فلا أرجع من هذه المعاجم بطائل، ولا أرى فيها إلا ما يمزق الأحشاء ويفتت الأكباد، فما رأي سيدي الدكتور؟ هل يجوز أن يكون عندك تخريج لمعنى هذه الكلمة التي يطيب لعلامة فلسطين أن يلصقها ابداً باسمك؟!

أما أنا فقد أقسمت أن لا أجلس إلى مائدة أستاذنا النشاشيبي في بهو الفندق حتى أنقل لك هذه الوشاية واسمع رأيك في الموضوع (14). ويضيف هذا الأديب إلى وشايته حاشية يقول فيها: يهم الدكتور مبارك أن أعلن أن الأستاذ النشاشيبي قد استبدل بالكوفية والعقال عمامة كبيرة ترف على رأسه تشبه عمامة السيد جمال الدين الأفغاني، ولعلى بهذا الخبر الطريف الذي أزفه للأندية الكبيرة أكون قدمت للدكتور مبارك مادة غزيرة لجوابه المنتظر (15).

ولم يتضايق النشاشيبي من نشر هذا الخبر على صفحات الرسالة، بل اكتفى بنفيه والتعليق عليه قائلاً «وما آفة الأخبار إلا رُواتها» (16).

بالإضافة إلى ما سبق تظهر مساجلات النشاشيبي أن أديبنا الكبير غيور على وطنه حريص على وحدة أمته وتماسكها، فهو يثني على كل من يذكر وطنه بخير، وينوه به ويشكره، ويهاجم كل من يتعرض لأمته بسوء أو تشويه.

من ذلك مثلاً أن صديقه الكاتب الألمعي أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة كتب مقالاً في مفتتح مجلته بعنوان: «يا لله لفلسطين» وصف فيه حالها البائس ودعا العرب والمسلمين إلى نجدتها ومد يد العون لها فقال: «فلسطين كلها اليوم بين منفيّ يلوذ بكنف الأعداء. وضعيف يتلهى بالدعاء والبكاء، ومدافع يقتات بالعشب، ويعتصم بالصحراء. وليس للمنفي شفيع إلا الأمل، ولا للضعيف عائل إلا الصبر ولا للمدافع منجد إلا الإيمان. أما إخوان النسب وإخوان العقيدة، فكأنهم لا يملكون لمأساة فلسطين الدامية إلا عزاء المجامل، ورثاء الشاعر، ودعاء العاجز، وبكاء المرأة.

إيها المسلمون إذا ذهبت عصبية الجنس، فهل تذهب نخوة الرجولة؟ وإذا ضعفت حمية الدين، فهل تضعف مروءة الإنسان؟ إن فلسطين تقاتل للحياة لا للمجد، وتناضل عن القوت

لا عن العزة، وخليق بمن يدافع عن نفسه أن يعان، وممن يذود عن رزقه أن يعذر.

إن فلسطين من البلاد العربية بمكان القلب، ومن الأمة الإسلامية بموضع الإحساس، وسيعلم الغافلون أن محنتها سبيل المسلمين إلى التعاطف، وصرختها نداء العرب إلى الوحدة (17) .

ولم يك إسعاف يملك بعد أن قرأ هذه الكلمة المؤثرة إلا أن ينوه بصاحبها ويشكره على مشاعره ومشاركته أهل فلسطين في محنتهم، فبعث إليه بكلمة يقول فيها: «يطل من مصر كاتب العرب وأديبهم الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة على أخوته الأشقياء البائسين من العرب والمسلمين في هذا الإقليم الشقي المبتلى، ويشاهد ما يشاهد –ولا تسلْ عن هول تلك المشاهد– فتملي على يراعته إسلاميته وعربيته وبلاغة مقالته (يا **الله** لفلسطين) . وإنها (و**الله**) لصفحة عربية عبقرية تضاف إلى صفحات له مثلها كثيرات، وحسنة أحمدية حسنية مضمومة عند **الله**، وفي التاريخ إلى مآثر جمة له وحسنات.

وإنَّ أحمد للمسلم المؤمن يذكّره كتاب **الله** فيدعو له ويقول. وإنه للبليغ يجول في ميادين الإنشاء والإبداع ويصول. وما (رسالته) في مصر إلى رسالة الإسلامية تخدم محمداً صلوات **الله** عليه قرآنه وأمته ولغته وبيانه و (فيها هدى ونور) . فحيًّا **الله** مصر التي وَقَتْ حضارة الإسلام والعرب في الأمس، وأعادت ذلك القديم اليوم» (18) .

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً أن شيخ الأزهر الشريف محمد مصطفى المراغي كتب إلى رئيس الوزراء في الدولة المصرية سنة 1938، حثَّ المسلمين فيها على نصرة فلسطين، ودعاهم إلى الوحدة والتعاون لإنقاذ الأعراض والمقدسات وحمايتها من عبث العابثين وطمع الطامعين، فكتب إسعاف بعد أن قرأ الرسالة كلمة تقريظ وتنويه بموقف الأزهر الشريف وعلمائه وتأييدهم المبدئي للقضية الفلسطينية يقول فيها: «فلسطين (فيها بيت المقدس) وفي هذا الوطن موطن (الإسراء) ومتَّصلُ (قوة الأرض) ب (قوة السماء) «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى».

إنما (القدسُ) منزلُ الوحي مغنىً — كلُّ حَبْرٍ من الأوائلِ عالمُ
كنفتْ بالغيوب فالأرضُ أسرا — (م) رُ مدى الدهر والسماءُ طلاسمُ
وتحلَّتْ من (البُراقِ) بطُغرا — (م) ءَ ومن حافرِ البُراقِ بخاتم

فاذا قرأت اليوم كتابك المبين من الأستاذ الأكبر (الشيخ محمد مصطفى المراغي) إلى رئيس الوزراء في الدولة المصرية فقل: إنما هو شيخ الإسلام يغضب للدين، وإنما هو إمام المسلمين يرفرف، وقلبه خافق على إخوانه المؤمنين، و**الله** تعالى يقول: ﴿**إنما المؤمنون**

أخوةﷺ، فالملة ملته، والأمة أمته، والقوم في الدين أخوته. وليست هذه العائدة بأول يدٍ لمصر إلى فلسطين، فشكراً ثم شكراً. ثم شكراً.

ويطالع النشاشيبي في مجلة: (آخر ساعة) مقالاً للكاتب المصري إحسان عبد القدوس، ورد فيه ما يوحي بالتهجم على العرب أو الأعراب على حد قول الكاتب، فتغضبُ المقالة إسعافاً، ويتهم صاحبها بالتجني على العرب، والتحامل عليهم، وإغفال ما كان لهم من مآثر ومكرمات يقول في رسالة وجَّهها إلى رئيس التحرير: «يا أخا العرب، لكاتبيْن محررين في مجلتك، ولكتاب في مصر وغير مصر أن ينقدوا (الأعراب) ، وأن ينعوا عليهم عيوباً فيهم، بل أن يبالغوا في شتمهم أو الهجوم عليهم إذا اقتضت حال سبًّاً. وإن لهم أن يقولوا: متى تتحضرون أيها الأعراب، وقد تبدلت الدنيا، وتدخلون في دين الناس، وتسكنون بيت الحجر وتتركون بيت الشعر. إنَّ لهم أن يقولوا الحق في كل وقت، وللحق يعنو الصغير ويعنو الكبير.

ومن أقوالنا قدماً: اشتمني وأصدق أيها الشاتم، "ولكن هل يجوز لكاتب عندك اسمه (إحسان) أن يقول في مقالته (حوادث وخواطر) – في الجزء (460) ص 10 في 25 يوليو (1943) : "كل هذه المدينة التي شيدناها لم تعجب الزائر الكريم وإنما أعجبه الأهرام وأبو الهول، أعجبته قطعة من الصحراء أقيمت عليها أصنام وقفت حولها حمير وابل وأعراب.. " .

أن هذا الشي إدٌّ (منكر)، إن هذا الأمر نكر لم تقتضه حال، ولا دعا إليه داع. فما الذي دفع الكاتب إلى هذه المقولة، وما ضَرُّه لو ترك (الأعراب) وخطبهم، ولم يقرنهم وما سماها في قرن.

يا أخا العرب، أنت تدري وكل الناس يدرون أن أجدادنا كانوا البعوث (الجيوش) التي قادها صاحب رسول **الله** أبو عبد**الله** (وعمرو بن العاص) العربي المصري (رضوان **الله** عليه) ، يوم بادر إلى مصر كيما يحررها ويهديها. قائد آبائنا عمرو بن العاص هو سيدي، وهو سيد كل مصري يقول: (لا إله إلا **الله** محمد رسول **الله**) ، وهو سيد كل مصري ينطق بالعربية. من حرر مصر؟ من هدى مصر؟ عمرو بن العاص صاحب محمد، خادم دين محمد.

يا أخا العرب، إن الأعراب (حيا **الله** ربعك) إذا تحضروا وتعلموا وتثقفوا جاءت منهم ملائكة. ومن الأعراب في هذا العصر وفي هذا الوقت في مصر وفي العراق والشام والجزيرة وبلاد المغرب (تونس والجزائر والمغرب الأقصى) دكاترة في العلوم والفنون، وأساتذة كبار، وزعماء عظماء، ومرشحون للزعامة من الطراز الأول [20] .

وقد رد إحسان على النشاشيبي دون أن يعرفه في العدد التالي من الرسالة معترفاً له بقوة العبارة وبلاغة القول وعمق المعنى حيث قال: «في العدد (530) من مجلتكم الغراء ورد اسمي في رسالة مفتوحة من «أستاذ جليل» إلى رئيس تحرير مجلة آخر ساعة يشكوني

فيها إليه لبعض ما كتبه بإمضائي.

وقد فهمت مما كتبه الأستاذ الجليل –وقد فهمته بصعوبة لبلاغة اللغة التي كتب بها– ، إنه يتهمني بالتجني على إخواننا العرب لمجرد قولي في سياق مقال: (كل هذه المدينة التي شيدناها لم تعجب الزائر الكريم، وإنما أعجبته قطعة من الصحراء أقيمت عليها أصنام وقفت حولها حمير وابل وأعراب) .

هذه الكلمة الصغيرة أغضبت الأستاذ الجليل واتهمني من أجلها بأني نسيت تاريخ العرب والنبي والإسلام، ومن حرر مصر ومن هدى مصر والقواد والخلفاء العظام الخ! نسيت لأني حاولت في مقالي أن أصف صورة واقعية يراها كل من يدفع ثلاثة قروش ثمناً لتذكرة ترام يحمله إلى الأهرام صورة الإبل والحمير المعدة لنزهة السائحين ولهوهم من حولها فعلا من الأعراب، أو على الأقل من المتزيين بزي الأعراب يلهثون وراء السائحين صائحين (بقشيش) ! .

وقولي: (وأعراب) دون (أل) التعريف تعني أنني أقصد بعض الأعراب لا كلهم، أو على الأصح لا أمة العرب كما فهم الأستاذ الجليل.

وفي كل أمة، سواء كانت عربية أم مصرية أم فرنسية، ينقسم الشعب إلى درجات وطبقات. فلو قلت إن في مصر ماسحي أحذية، فليس معنى ذلك أن الشعب المصري كله من ماسحي الأحذية. ولو قلت أن من الأعراب من يقف وراء الحمير والابل، فليس معنى هذا أن كل العرب يقفون وراء الحمير والابل.

إن العرب أمة من الأمم.... أمة لها مزاياها ولها عيوبها، ومن حقنا أن نذكر عيوبها بنفس الصراحة التي نذكر بها مزاياها. أمة لها تاريخ مجيد، ولكن التاريخ لم يعد يكفي لتقدير الأمم في هذه الجيل» [21] .

لعل أهم ما يستنبطه القارئ من هذه المساجلة بين الأديبين أن إسعافاً كان ينظر إلى العروبة من زاوية تتسم بالشمولية والاتساع من حيث أنها فضلاً عن العاطفة الوطنية المشتركة تضم جانبها الروحي المرتبط بالتراث الإسلامي. وهذا الجانب الروحي بعناصره المتعددة هو الذي تتوقف عليه وحدة الأمة وتكاتف أبنائها واتحادهم.

من أجل ذلك أكد إسعاف في مواضيع كثيرة من ردوده وتعليقاته أن تَكَوُّنَ الأمة لا يتوقف على اتحاد دمائها أو انحدارها من سلالة واحدة، ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها اتحاداً يظهر في وحدة اللغة وآدابها، واشتراكها في الآلام والآمال، فالسلطان صلاح الدين مثلاً والسادة الأيوبيون ليسوا، – في نظره– أكراداً ولا يعدهم كذلك، بل أهم أعرب من يعرب [22] ، لأن العربية لا تكتسب بالوراثة والدم فحسب، إنما تكتسب –كما قال

الرسول صلى الله عليه وسلم– باللسان فمن تكلم العربية فهو عربي.

وعلى هذا الأساس يناقش النشاشيبي الشاعر المصري (علي الجارم) ويخطئه في استخدام تعبير (فتى الكرد) نعتاً للكاتب المصري المعروف قاسم أمين في قوله:

يا فتى الكردِ كمْ بززتَ رِجالاً   من حميمِ الحِمى أعرابُه

يقول إسعاف: «وهذا القول قائله مدفع فالمرء بفضله وفصله لا بزخرفه وأصله. والأمة إنما هي بلغتها وأدبها وعقيدتها ومصلحتها. وقد قال أحمد بن الحسين الهمذاني صاحب الرسائل والمقامات: «المرء من حيث يوجد، لا من حيث يولد. والإنسان من حيث يثبت. لا حيث ينبت» وقاسم قد وُجد وولد في مصر، وثبت ونبت في مصر. إنا إذا فتحنا هذا الباب وأنشأنا نقول: يا فتى الأكراد، ويا فتى الأتراك، ويا فتى الأعراب، ويا فتى الإغريق، ويا فتى الشركس، ويا فتى الألبان، ويا فتى الفرس ويا فتى الهند، ويا فتى الصومال، ويا فتى المغرب، ويا فتى الشام، فقد تشظّت الأمة (العربية المصرية) –يا أخا العرب– وهفتْ هفُوا [23].

هكذا يكتسب مفهوم الأمة عند إسعاف بعداً تراثياً وإنسانياً وحضارياً يتسم بالأصالة والانفتاح. فالأمة العربية في نظره ليست كياناً في مواجهة كيانات أخرى، وإنما هي شمولية نوارنية: الإسلام قنديلها والعربية لغتها والقرآن كتابها.

وإذا كان النشاشيبي حريصاً على ترسيخ مفاهيم القومية العربية، وربطها بأحكام بالمصادر الروحية والتراثية، فهو مهتم أيضاً بحاضر الأمة ومستقبلها، يؤرقه حالها، ويحزنه تقهقرها وتخلفها، وخاصة بعد أن استفاقت أمم كثيرة من هجوعها، وشقت طريقها متوسلة بكل ذريعة للخروج من وهدة الجهل والعماية، ومن أسر التقاليد والعادات الجاهلية الباطلة.

يقول مخاطباً أمته، حاثاً إياها على سلوك سبل الإصلاح، ومحذراً من كيد الأمم الاستعمارية: «حسبك أيتها الأمة ما عانيت من جور حكامك، وظلم أمرائك، وقَطْكِ ما قاسيت من بغي قوانينك ودساتيرك، وتقاليدك وعاداتك، فانتبهي من هجوعك وولوعك بخرافاتك وأباطيلك، وارتدي رداء الحزم، واشحذي سيف العزم، وانهجي نهج الرشد، واعلمي– إن جهلت– أن أوروبا تتربص بك ريب المنون وتترصدك في كل ثنية وواد، وتهتبل غرتك لتهدم صروح عزك وتغادرها صعيداً زلقا فقاتليها بسلاحها، أعدّي لها من القوى والمنن ما تستطيعين أن تَعُدّي، ولا تلقي بمقاليدك إلى القدر القاهر، والقضاء القاسط، واسترشدي الأمم المتقدمة كيف علت وسادت، وسليها، سليها أنى يقوى الضعيف، ويعز الذليل، وينبه الخامل،

ويهتدي الحائر، وأين الطريق التي من أمَّها طأمن [24] من غلواء الغربيين وعنجهيتهم؟ ، وخفض من زهوهم وكبريائهم، فإن عند جهينة العلم البليغ، والخبر اليقين» [25] .

ولعل من أبرز ما تظهره ردود النشاشيبي ومساجلاته بالإضافة إلى ما سبق عنايته باللغة العربية، وما يتفرغ عنها من أدب ونقد وألفاظ وأساليب. وهي عناية تتجلى فيها القدرة والثقة بالنفس والإحاطة بجوانب المسائل التي يتصدى لمناقشتها، فهو من هذه الناحية يقف في مقدمة الأسماء المنافحة عن العربية مثل: محمد كرد علي وأنستاس الكرملي وأحمد زكي وأحمد تيمور والغلاييني واليازجي، هذا الرعيل الذي خدم العربية وحماها، وعاش حياته غيوراً عليها، منقباً عن دقائق أوضاعها، وغوامض حروفها، وبدائع أوزانها.

لقد أمضى إسعاف سني عمره منصرفاً إلى اللغة العربية، يقف عندها ويؤلف فيها، ويقف على أسرارها، ويساجل كتاب عصره وأدبائه فيما يتعلق بمسائلها وقضاياها، ويعود ذلك إلى إيمانه بأن مجد الأمة وتراثها متصلان باللغة، وفي ذلك يقول: «إن مجد الأمة وتراثها متصلان باللغة العربية، وأن مجد العربية لن يثبت لصدمات الزمان إلا إذا حَرَص أبناء الشرق على أن يتخذوا لغة الأوائل من أهل البلاغة السليمة والفصاحة الصافية» [26] .

والنشاشيبي من ذلك الصنف المجادل الذي يخاصم في ثقة، ويدخل في مساجلات اللغة والأدب معتمداً على قوة عارضته، وتمكنه من ناحية اللغة وأسرار بيانها، «فما كتب كاتب فحاد عن القصد في كلمة عن العربية، أو قاعدة من قواعدها، أو خطأ في رواية من الشعر والنثر إلا سارع برده إلى الصواب» [27] ، وما من رأي منحرف أو فكرة تغريبية تناولتها الصحف إلا واجهها بقوة، ورد عليها، وساجل أصحابها في تواضع لا يقصد منه الظهور أو التعالي، بل كان هدفه حماية اللغة العربية وتنقيتها من الدخيل، وتحقيق كل ما يتصل بالتراث العربي والإسلامي، وقد كان من تأثير ذلك أن رشحه بعضهم لعضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة، حيث جاء في كلمة مذيلة بتوقيع (ع. ح. خ) بعنوان: (حفلة المجمع اللغوي لاستقبال الأعضاء الجدد) : «كنا نأمل أن نرى بين هؤلاء الذين عينوا أخيراً بعض أبناء الأمم الشقيقة، وخاصة غير الممثلة في المجمع كفلسطين وفيها الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي، وهو– كما يعلم الجميع– من أعلام العصر في اللغة العربية والأدب» [28] .

وكلن من تأثير ذلك أيضاً أن أصبح النشاشيبي في فترة وجيزة مرجعاً في اللغة، وحكماً يفصل في القضايا اللغوية والأدبية بين الأدباء واللغويين، فالدكتور زكي مبارك مثلاً يطلب منه التحكيم بينه وبين أحد المناظرين حول ضم كلمة (الظرف) أو فتحها، حيث ذهب مبارك إلى الضم؛ لأن الكلمة في رأيه أخذت حكم اللطف عن طريق الاتباع، ثم بقي لها

الحكم مع الانفراد [29] . وذهب الآخر إلى الفتح، فكتب النشاشيبي رأيه دون محاباة لأحد وجاء فيه «قرأت في العدد 397 من الرسالة الغراء كلمة للدكتور زكي مبارك، توجيهاً لغلطه في ضم الظاء من كلمة (الظرف) . فقد قال: «أنا أقول أن الظرف قد أخذ حكم اللطف عن طريق الاتباع، ثم بقي له الحكم مع الانفراد، والمصريون عرب، وهم لا يخطئون في لغتهم عن جهل، وإنما (يخطئون) لأسرار قد تخفى على بعض القراء، فتتوّهمهم مخطئين وهم على صواب «الخ ما قال.

ومعنى هذا كله أن الدكتور قد أخطأ، فشقَّ عليه أن يعترف بالخطأ، فراح يتلّمس أمثال هذه العلل. نحن لا ننكر أن جمهرة المصريين من أصل عربي، وأن لغتهم تتكون من لهجات القبائل العربية التي نزحت إلى مصر، وأنها تشتمل على كثير جداً من الفصيح، وعلى كثير جداً مما يحتاج إلى يسير من التهذيب والصقل حتى يعود صحيحاً. ولكننا ننكر أشد الإنكار أنهم لا يخطئون في لغتهم، بل الخطأ والتشويه فاشيان في صميمها. وما ظنك بأمة خالطت الأعجام من كل جنس قروناً وأحقاباً طوالاً، ولخطر المخالطة والامتزاج جدَّ السلف من اللغويين في ضبط اللغة، ووضع قواعدها، وجمع مفرداتها من أفواه العرب الخلَّص، حفاظاً عليها من أن تتسرب إليها العجمة والتشويه. أفبعد كل هذه المخالطة والامتزاج نجرؤ أن نحتج بكلام المصريين وضبطهم للألفاظ؟ ألا إن هذا المذهب إغراء صحيح للشباب بالاستهانة بالبحث، وأخذ اللغة من مصادرها الصحيحة» [30] .

ونشب حوار على صفحات الرسالة بين الدكتور زكي مبارك والأستاذ إسماعيل مظهر حول معنى (الجيل) ، فأنكر إسماعيل مظهر المعنى المعروف للكلمة وهو أهل الزمن الواحد، وقال: إن الكلمة التي تؤدي هذا المعنى هي (الأهل) ، وساق نصاً من الأغاني يؤيد رأيه- مستنداً إلى ما أطلع عليه من المعجمات- إن الجيل هو الصنف من الناس، فالمصريون جيل، والترك جيل الخ، وأصر الدكتور زكي مبارك على أن المعنى المتعالم يقصد أيضاً من (الجيل) ، ووعد بمواصلة البحث حتى يأتي بالدليل. ولكنه لم يأت بعد.

وإني أدله على دليل: ففي (المصباح المنير) في مادة (ق ر ن) ما يأتي:» والقرن: الجيل من الناس) قيل ثمانون سنة. وقيل سبعون» فأنت ترى للجيل معنيين قد نص عليهما.

أما (الأهل) التي أتى بها الأستاذ مظهر من الأغاني فيظهر أنها تنوسيت لذلك المعنى. فأهمل استعمالها [31] .

وكثر الجدال في الثلاثينيات والأربعينيات في صحة نسبة (نهج البلاغة) إلى الإمام علي بن أبي طالب، فبعث سائل من العراق رسالة إلى النشاشيبي يقول فيها: «كثر الجدال في صحة نسبة نهج البلاغة وتقارعت الأدلة، فمن يرى أنه للشريف الرضي لا للإمام علي،

ومن يقول: إن أسلوبه أسلوب العصر العباسي لا أسلوب الصدر الأول.

وكان من نقدة الكلام وجهابذة القول حكم باستحالة صدوره عن الإمام. وأن فيه من الطعن على الصحابة ما ينزه عنه أبو الحسنين، ويناقض ما روى عنه (بالتواتر) من الثناء على الشيخين ومبايعتهما والرضا باتباعهما، وأن فيه أشياء من مصطلحات أهل العلوم التي لم تكن قد وضعت على عهد الإمام أصولها، ولا أصطلح على تلك الألفاظ فيها، وان فيه ما يخالف (طبائع الأشياء) . فقد كان الإمام مدة خلافته كلها في حروب ومشكلات لا يفرغ معها، ولا يجد داعياً ولا مجالاً لإلقاء خطبة طويلة في وصف الطواويس وأنواع الخلق أو البحث في فلسفة اللاهوت هذه الحجج لمن ينفي، ولمن يثبت حججاً دفاعية (يرونها) مقنعة، وقد كنَّا في مجلس (وهو واحد من مئات أمثاله) اشتد فيه بيننا الخصام، وامتد الجدال، ثم اتفقنا على تحكيم أعلم الناس بمراجع هذا البحث وأوسعهم اطلاعاً عليها، ومن قوله فيها القول، فوجدنا هذا الشرط في حجة الأدب النشاشيبي.

فهل لك يا أستاذنا الجليل أن تقول (كلمة الفصل) في هذا الموضوع فتخدم بذلك الحقيقة والأدب وأهلهما؟ " (32) .

وقد أجابه إسعاف في عدد تال من الرسالة بقوله: «إلى حضرة الأستاذ البارع الفاضل (سائل) من (العراق) في مجلة العرب (الرسالة) : (نهج البلاغة) يا أخي من كتب إخواننا الامامية، ومن الكنوز العربية، وهو مجموعة مصطفاة، وإن لم يحبّره سيدنا على (رضوان **الله** عليه) ، فقد انتقاه وحبَّره علويون، كما زخرف محدثون كل حزب لديهم فرحون، وإن همهم تحقيق وتأريخ فقد ابتهج الأدب واللغة. ولولا إبداع المبدعين أو صوغ الصياغين ما ورثنا هذه الثروة الفخمة الضخمة في الأدب العربي. وليس عندي اليوم مزيد على ما قلته في (نهج البلاغة) في (كلمة في اللغة العربية) ، وفي (الإسلام الصحيح) ، وإذا لم يكن ما خَطَطْتُه في الكتابين (كلمة الفصل) ، فربما كان (فصلاً من الفصول) المرصنة فيه» (33) .

ولعل أكثر من كانت له معهم صولات وجولات على صفحات الرسالة صديقة الحميم الدكتور زكي مبارك الذي كان يتابع –متعمداً– سقطاته اللغوية، ويصحح له أخطاءه وهفواته، بل ينجده أحياناً إذا ما أعوزه دليل أو شاهد في مناظرة أو جدل مع أحد الخصوم. ومع ذلك مثلاً أن الدكتور مبارك استعمل في إحدى مقالاته كلمة (من جديد) حيث قال: «فدلَّنا الأستاذ (من جديد) على حسن هضمه لما يقرأ من آراء الباحثين» (34) .

وقد اعترض إسعاف على هذه الصيغة وبين أنها دخيلة على اللغة العربية فقال: «من التعبيرات التي تسربت حديثاً إلى لغتنا، فتداولها الكتاب من غير تمحيص، ولا وزن لصحتها اللغوية، ولا لصلاحيتها لأن تندمج في الأساليب الفصيحة وتغدو جزءاً منها.

ولم تكن هذه العبارة شائعة بيننا قبل نحو عشر سنين، على ما أذكر، وكنت أراها أولاً في بعض القصص والمجلات والجرائد. ثم سَرَتْ في أحاديث الناس واستظرفوها وتملحوا بها.

وما كنت قط أتوهم أن تصل يوماً إلى أقلام البلغاء، حتى رأيتها في قصيدة لشاعر معاصر من شعرائنا البارزين الذين يحتفون في جزالة الأسلوب أيَّما احتفال، وحتى استعملها العلامة الدكتور زكي مبارك في إحدى مقالاته.

ولقد جهدت في أن أخرج هذا التركيب –في مختلف أوضاعه– تخريجاً سائغاً، فلم أوفق. ذلك أن (جديد) ملحوظ فيها أن تكون صفة موصوف. فما هو هذا الموصوف؟ قد يكون التقدير –في عبارة الدكتور– : (من وقت جديد) أو (من أمر جديد) مثلاُ. ولكن كيفما قدرنا هذا الموصوف ألفينا الكلام –كما ترى– غثا لا معنى له.

والواقع أن هذا التعبير ترجمة للكلمة الإنجليزية afresh أو anew –على ما أعلم– ترجمها من لا يتحرون الصحة، أو من ليس لهم من علمهم ما به يتحرَّونها. فاقتبسه الناس وأغرموا به– كغيره من التراكيب الإفرنجية الكثيرة التي شوهتها الترجمة السقيمة– على غير روية أو انعام نظر.

أفلا يرى معي حضرة الدكتور أنه لا يجدر بنا أن نحارب هذه الطفيليات في لغتنا، وأن نقضي عليها قبل أن يستشري فينا شرها؟ [35] .

وعقب النشاشيبي في عدد آخر من الرسالة على مقال للدكتور مبارك تحدث فيه عن «الشاعر العربي المجهول أحمد زناتي»، «الشاعر الذي جهله المصريون وعرفه العراقيون فقال: «فليأذن لي حضرة الدكتور أن أنبهه إلى أن الشاعر الذي يعنيه هو الشيخ عثمان زناتي الذي درس في الأزهر، وسلخ وقتاً غير قصير من حياته مدرساً للغة العربية بالمدرسة الحربية، ولا يزال كثير من أصفيائه يتحدثون بمناقبه، ويروون شعره، ويتمثلون به. وكان الشيخ رحمه الله بين الفئة الممتازة من شعرائنا الذين ازدانت بهم أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن.

أما الشيخ أحمد زناتي بك فأخو شاعرنا، وكان (أحد أساتذة اللغة العربية) ، كما قال الدكتور، وتخرج في دار العلوم لنحو خمس وأربعين سنة خلت. فالتحق بخدمة سمو الخديوي عباس حلمي، فعينه ناظراً لمدرسة «القبة» التي أنشأها على غرار المدارس الأولية الآن، ليتعلم بها بعض أطفال الطبقة الراقية في ذلك الحي.

وكان أحمد زناتي بك – إلى هذا– من ذوي المكانة والخُطوة عند سمو الخديوي، ويجالسه، ويصحبه في رحلاته الصيفية إلى الآستانة وآوروبا.

ثم ألقى عصا التسيار في المرحلة الأخيرة من حياته العلمية بوزارة المعارف، فعمل في التفتيش، وتوفي سنة 1929 قبل أن يحال إلى المعاش، وتوفي الشيخ عثمان بعده بنحو خمس سنوات، على ما أخبرت» (36) .

وأجاب الدكتور مبارك على هذا التعقيب في العدد 411 من الرسالة فقال: «تفضل الأستاذ الكبير «أ. ع» فصحح الخطأ الذي وقعت فيه حين تحدثت عن أحمد زناتي وأنا أريد عثمان زناتي.

وأقول إن ذلك الخطأ كان نعمة عظيمة. فقد أوحى إلي هذا الأستاذ الكبير كلمة من أطيب الكلمات في التعريف بأخوين كان لهما في خدمة اللغة والأدب والتعليم مكان مرموق.

ذلك خطأ وقعت فيه سهواً، فكان من آثاره أن ينتفع القرآء بتلك الكلمة الطيبة، وإلا فأنا أعرف أن الشاعر هو عثمان زناتي، كذلك ورد اسمه في كتابي «الأسمار والأحاديث» ص 298 عند الكلام عما انتهب شوقي من معانيه الجياد.

ولو ضمنت أن يصحح الأستاذ «أ. ع» جميع أخطائي لأخطأت عن عمد لأظفر بتلك النفثات التي تصدر عن باحث من أعاظم الباحثين (37) .

وكتب الدكتور مبارك في زاويته المعروفة (بشجون) في العدد (420) من الرسالة كلمة جاء فيها: أكبر هموم علمائنا اللغويين أن يعترضوا على نيابة حرف عن حرف، وأن يقول قائلهم: إن العرب تعرف كيت ولا تعرف زيت (كذا) ، وأن يثوروا على أي تعبير، ولا يجدون له شواهد في أقوال القدماء ألخ». فخطَّأه النشاشيبي في استعماله كيت وزيت قائلاً: «ولست الآن من محاجة الدكتور في أفكاره هذه بصدد، **وإنما هما ملحوظتان لفظيتان أريد التنبية إليهما في عبارته**:

- أن (ذيت) بالذال لا بالزاي. وقد انتظرت طويلاً لعل الدكتور يعود فيصححها، فلم يفعل. وقد يكون هذا من سبق القلم، كما قد يكون من زلات المطبعة.
- أن (كيت) و (ذيت) لا بد أن يتكررا. تقول: كان من الأمر كيت وكيت، أو: كان من الأمر ذيت وذيت. وفي الحديث: "بئس ما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت" (38) .

ودارت مساجلة أخرى بين الدكتور مبارك، وبين نفر من أدباء الشرق حول تعدية الفعل (حرم) بمن، فقد أجاز الدكتور هذه التعدية، واستعملها في إحدى قصائده، واعترض عليه بعضهم، فدافع عن رأيه قائلاً: «إنه قد يرى المعنى في بعض الأحايين لا يُؤَدَّى تأدية صحيحة إلا إذا عُبِّر عنه بتلك الصورة (39) . وهو دفاع لا يقنع أحداً، على حد قول النشاشيبي، لأنه غير مشفوع بالشاهد والدليل، لهذا استدرك عليه في العدد 405 من الرسالة، وأسعفه

بدليل يرد به على معارضيه فقال: إن الفعل (حرم) يتعدى بمن أيضاً، وعندي شاهد لذلك عثرت عليه في بعض مطالعاتي للأغاني».

وبينما كنت أجيل الطرف أمس في كناشتي، إذا أنا أمام هذا الشاهد، وهو للعباس بن الأحنف قال:

أحـرَمُ منكم بما أقولُ وقدْ ... نالَ به العاشقون ما عشقوا
صِرْتُ كأني ذبالةٌ نصُبِتْ ... تضيءُ للناسِ وهي تحترقُ

وهكذا كان النشاشيبي حريصاً على تتبع ما يكتبه الدكتور مبارك، متعمداً إظهار سقطاته اللغوية، وتصحيح ما ينزلق فيه قلمه من أخطاء وهفوات في اللغة والأسلوب. وربما توقع القارئ أن تؤدي هذه المتابعة النقدية المستمرة إلى معركة حامية يحتدم أوارها بين الطرفين، وخاصة أن كليهما يعد نسيج وحده في سعة الاطلاع وكثرة الحفظ، وتقصي الأطراف وتمحيص الحقائق. على أن شيئاً من ذلك لم يحدث، واستمرت العلاقة بينهما رائقة لا تشوبها شائبة، ولا يُكدِّر صفوها مكدِّر. وهناك إشارات وعبارات وردت في أكثر من موضوع في (الرسالة) توحي بأن الدكتور لم يضق صدرُه، ولم يتبرم بسبب هذه التعليقات، بل كان ينتظرها بشغف ويرقبها بشوق، واصفاً صاحبه بأنه من أعظم الباحثين في هذا الجيل» (41) .

وقد كان للنشاشيبي بالإضافة إلى ما سبق مواقف ومساجلات مع مشاهير كتاب مصر كالعقاد والرافعي ومحمد عبد الغني حسن ومحمد سعيد العريان وغيرهم. وقد أظهرت هذه المساجلات كلفه بالألفاظ، وعنايته بها وقدرته الفائقة على تحري النصوص، وردِّها إلى أصولها، وقد شهد له بالريادة والتفوق في هذا الميدان نفر من كبار الأدباء كالأمير شكيب أرسلان وأحمد شاكر الكرمي وعبد الرحمن الجديلي وعبد الوهاب عزام وأحمد حسن الزيات الذي نعته قائلاً: «أنه حجة الإسلام وعمدة العرب» (42) .

وقد بلغ من حرص النشاشيبي على تتبع نتاج الأدباء والكتاب والشعراء وتنبيههم إلى أخطائهم، أنه لم يكد يخلو عدد من أعداد الرسالة في الفترة من سنة 1937 تقريباً وحتى منتصف الأربعينيات من بحث أو مقالة أو تعقيب لغوي أو مناقشة مع أحد الكتاب حول إحدى المسائل اللغوية أو الأدبية، ففي العدد 267 من (الرسالة) كتب نبذة بعنوان: (الأستاذ العقاد وامرؤ القيس) ، عارض فيها ما كتبه العقاد حول مقاييس الجمال عند العرب كما وردت في أشعارهم. قال: «قال الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد في مقالته: (بقية المذهب) في الجزء السابق من (الرسالة) الغراء. «لقد وصف بعض الأعراب نساء (محبوبات)

فاستملحوا الضخامة ومدحوا الكسل وبطء الحراك، وافتتن أميرهم بعذارى قال في وصفهنَّ ما يقال في وصف الغيلان:

فظلَّ العَذارى يَرْتمِينَ بلحْمِها وشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدَمِقْسِ المُفتَّلِ

نعوذ بالله! «قلت: أمرؤ القيس يقول هذا في وصف الناقة التي عقرها للعذارى (المحبوبات) لا في وصف فتاة من الفتيات، وقبله.

ويومَ عَقَرتُ للعذارى مطِيَّتي فيا عجباً مِنْ كورِها المُتَحمَّلِ

وقد قال الزوزني في البيت (اللحمى الشحمى) : «فجعلن يلقي بعضهن إلى بعض شواء المطية».

وامروُ القيس الكندي أو حماد الرواية أو صاحب هذه القصيدة، إنما يستحسن في المرأة ما يستحسنه الأستاذ العقاد النقاد، ويستقبح ما يستقبحه وهو يقول في (معلقته) التي لم تُعلَّقْ في كعبة ولا خيمةٍ ولا خُصّ.

مُهَفْهفةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضةٍ تَرائبُها مصقولةٌ كالسَّجنْجَلِ

قال الزوزني: «يقول: هي امرأة دقيقة الخصر ضامرةُ البطن، غير عظيمة البطن ولا مسترخيته، وصدرها براق اللون متلألىء الصفاء تلألؤ المرآة «فأمير الأعراب –وهذا قوله– ونائب الأمة في (دار الندوة) الأستاذ العقاد في قضيتهما في (الحسان) سيان، ولم يختلف في الحق الأميران» (43) .

وقي العدد 407 كتب نبذة أخرى تضمنت ملاحظتين على قصيدة (ميلاد نبي) للشاعر محمد عبد الغني حسن جاء فيها: «قرأت في العدد 405 من الرسالة الغراء قصيدة عنوانها: (ميلاد نبي) ، للشاعر الكبير الأستاذ محمد عبد الغني حسن. فعنت لي ملحوظتان لغويتان أود أن أعرضها على الأستاذ وهما:

1. **قال في وصف الجاهلية:**

متفرقينَ هناكَ لم يتفيَّئوا لخميلةٍ أو يُمسكوا ببناءِ

فعدَّى الأستاذ (يتفيئوا) باللام، وهذا ما لا أعرفه.

قال الجوهري: "وفيأت الشجرة تفيئة، وتفيأت أنا فيها". وفي الأساس: "وتفيأت بالشجرة". وفي التاج وعداه أبو تمام بنفسه في قوله: فتفيأت ظله ممدوداً"، فهل أطلع

الأستاذ على نص يتعدى فيه (تفيأ) باللام؟ .

2. **وقال:**

ميلادُ (أحمدَ) كان مولدُ أمَّةٍ عربيةٍ وشريعةٍ سمحاءِ

والذي أعرفه أن يقال: (سمحة) لا (سمحاء) ، فإن من معاني السماحة السهولة واليسر. فيقال: «عود سمح: بين السماحة مُستوٍ لا أُبَن فيه» كما في الأساس. (والأُبن: العُقد تكون في القِسيّ تفسدها وتعاب بها) ، وفي التاج: «وقولهم: الحنيفية السمحة: هي الملة التي ما فيها ضيق ولا شدة» هذا مبلغ اطلاعي. والله أعلم» (44) .

وحين ألقى الشاعر المصري على الجارم قصيدته في المهرجان الملكي خَطَّأه إسعافُ في استعمال كلمة النسائم كما جاءت في قوله:

يُفدّيه غُصنُ الدَّوحِ ريَّانَ ناضِراً إذا اهتزَّ في كفِّ النسائمِ مائِلُه

ذلك لأنه جاء بالنسائم جمعاً للنسيم أو للنسمة. والمعروف أن جمع نسيم: (أنسام) وجمع نسمة: (نسم) . وسالمها نسمات. ولم ترد هذه النسائم في كلام إسلامي أو مولد، دع عنك المخضرم والجاهلي. والمتأخر والعصري ما هما حجة (45) .

ولم تقتصر ملاحظات النشاشيبي وتعقيباته النقدية على نتاج الكتاب والشعراء فحسب، بل تعدَّتها إلى أقوال الصحف وأخبار الإذاعة، وخطب رجال الدولة والسياسيين وتصريحاتهم، ففي العدد 284 من الرسالة تعليق طريف على خطبة ألقاها محمد محمود باشا رئيس وزراء الحكومة المصرية في ذلك الوقت في مدينة الإسكندرية، وجاء فيه ما نصه: «قال صاحب المقام الرفيع الأستاذ محمد محمود باشا رئيس الوزراء في خطبته الغراء في الاسكندرية: «نحن الآن نجتاز (أوقات) ملأى بالأحداث والعبر». وصاحب المقامات المشهورة أبو محمد الحريري في (ملحمة الأعراب) يقول:

وكلُّ ما كُسِّرَ في الجُموعِ كالأسدِ والأبياتِ والرُّبوعِ

فهو نظيرُ الفردِ في الإعرابِ فاسمعْ مقالي، واتبعْ صَوابِي

وقال الناظم في الشرح: «وفي جمع التكسير ما يوجد في آخره ألف وتاء فيتوهم المبتدئ أنه من قبيل جمع المؤنث السالم الذي لا تفتح تأوه في النصب، وذلك مثل أبيات وأقوات وأموات فهذه الجموع الثلاثة من نوع جمع التكسير ويدخل تاءها النصب».

والأستاذ محمد محمود باشا من الفصحاء المعربين إذا خطب. وكان الشاعر العظيم

(أحمد شوقي) يقول لي: «أنه من المشغوفين بالعربية» لغة آبائه الكرام العرب، وقد صادق الأستاذ الرئيس – ولم يعاد كدأب كثير من عُمَّال السلطان– كتب اللغة والأدب. والكبير المشهور تقلَّدَه الناس مخطئاً ومصيباً، ومن أجل ذلك كتبنا هذه الأسطر (46) .

وهكذا يتضح لنا مما سلف من ردود النشاشيبي في تعقيباته أنه –يعدُّ بحق– في طليعة اللغويين العرب تحقيقاً وتمحيصاً وامتلاكاً لناصية اللغة. فهو من أئمة العارفين بمقامات الكلام ومن المنافحين المتحمسين بإخلاص عن سلامة الاستعمال اللغوي، في وقت تعرضت فيه اللغة العربية لحملة عنيفة قاسية من دعاة التغريب والتمصير. فلا غرو إذا اتسمت فصوله وتحقيقاته بسمات التحليل والعمق والإحاطة وسعة الاطلاع، وإذا تجلت مقدرته على التمييز بين الأساليب العربية الصحيحة والأساليب المستحدثة، وعلى معرفة الخطأ والصواب في لغة الكتاب، فهو– كما وصفه صاحب (الرسالة) أحمد حسن الزيات– «خاتم طبقة من الأدباء واللغويين المحققين لا يستطيع الزمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجودَ بمثله» (47) .

ذلك هو إسعاف النشاشيبي الأديب الفلسطيني الشامخ كالطود الأشم، وقد صدق فيه قول الشاعر:

فَخْرُ العروبةِ والإسلامِ في أدبٍ	وكلمة أعلتْ الإسلامَ والعَرَبا
كأنه الشمسُ تُعيي مَنْ ينافِسُها	ونورُها يغمرُ الآفاقَ منسكِبا

وختاماً فإننا لا نجد ما نخاطب به أديبنا اللامع أفضل مما خاطبه تلميذه الوفي وصديقه المخلص عميد الأدب الفلسطيني، الدكتور إسحاق موسى الحسيني حيث قال في مقدمة كتابه عن أديب العربية الذي نشره مركز الأبحاث الإسلامية مؤخراً: «فلتطب نفساً يا (أبا الفضل) فقد ضوأت حياً وميتاً، وعرف قومُك جهدك وجهادك ولن تمحو السنون أروع سطر في تاريخ العربية المعاصر. وإنا للعهد لحافظون وللأثر لمقتفون. وسلام **الله** على روحك الطهور (48) .

الهوامش:

1. د. أحمد فؤاد الأهواني، محمد إسعاف مدرسة أديبة، مجل الرسالة، العدد 761، فبراير 1948م، ص: 165.
2. وردت هذه العبارة في كلمة نشرها الأمير في مجلة الزهراء مقرظا خطبة النشاشيبي (كلمة في اللغة العربية) وقد ورد فيها هذان البيتان.

قد قالتِ اللغةُ الفُصحى بغرَبتها	**قد أحسنَ اللهُ إسعافي بإسعافِ**
هو المجيبُ لمن قد باتَ ينشدهُ	**أنصرْ أخاك لدى ظلمٍ وأسْ عافي**

3. لمعرفة المزيد عن حياة النشاشيبي أنظر: د. إسحاق موسى الحسيني أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، 1987م) ، ص: 5 – 40 كمال الريماوي حياة محمد إسعاف النشاشيبي من أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي عصره حياته أدبه وفكره، (القدس مركز أبحاث الإسلامية، 1987) ص 27 – 46.
4. أنظر طرفا من سيرته في: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (عمان: مكتبة المحتسب، 1973م) ، ص: 287، 288.
5. دعته مصلحة الإذاعة الفلسطينية سنة 1938م ليذيع مجموعة أحاديث عن الأديب مصطفى صادق الرافعي بمناسبة مرور عام على وفاته. وقد مكث في فلسطين أياماً تركت في نفسه انطباعاً لا ينسى على حد قوله، لأنه فوجئ بالمستوى الثقافي الرفيع عند شباب فلسطين، وبالحفاوة البالغة التي استقبل بها في بيت المقدس. وفي ذلك يقول: «وفي دار شيخ أدباء العروبة كان مقامي أطول المدة التي قضيتها في فلسطين. لقد دخلت فلسطين وأنا خفيف الظهر، فما فارقتها حتى كان علي من الدين لهذا الرجل الكريم ما ينوء به كاهلي، فشكراً له ومعذرة إليه إن عجزت عن الوفاء». انظر محمد سعيد العريان، في ربوع فلسطين، مجلة الرسالة، العدد 255، 1938، ص: 869.
6. زار القدس سنة 1941م بدعوة من الإذاعة الفلسطينية، وأقام في ضيافة صديقه إسعاف النشاشيبي. انظر الرسالة العدد 433، 1941، ص: 1302.
7. مجلة الرسالة، العدد 602، 1945م، ص: 75.
8. أنظر كلمة أحمد حسن الزيات في رثاء محمد إسعاف النشاشيبي، الرسالة: العدد 761، 1948م، ص: 129.
9. يبدو أن هذه الألقاب كانت معروفة للكتاب والأدباء المعاصرين للنشاشيبي. فقد دلت ردود بعضهم عليه أنهم كانوا يعرفونه ويشيرون إليه تلميحاً أو تصريحاً، ومن ذلك ما كتبه محمد سليم الرشدان تعقيباً على كلمة النشاشيبي مذيلة بتوقيع (السهمي) حول

وزن فعلاء وجواز استعماله وصفاً للجمع كقولنا أردية سوداء، وذلك خلاف ما ذهب إليه الرشدان الذي عده انحرافاً عن الجادة ومسايرة للعامية، لأن الصواب في رأيه القول أردية سود لا سوداء حيث قال: «وصل إلي السمير الحبيب مجلة الرسالة، فطالعني بين طياتها ما كتبه أمام العربية الأكبر أستاذنا الجليل (السهمي) . ومن ذا الذي يجهل السهم صنو النشاب»؟ انظر الرسالة العدد 1740، 1947م، ص: 996.

10. خير ما يصور الحالة الثقافية في تلك الفترة، ما كتبه محمد سعيد العريان الذي زار فلسطين، وأقام في القدس في بيت صديقه محمد إسعاف النشاشيبي حيث قال: «جلست في مجلس طائفة من الأدباء أستمع إلى أحاديثهم ومداولاتهم، فإذا شباب هناك يسبقون الكهول عندنا في البحث والمطالعة والاستقراء، وإذا علم واطلاع، إذا طرائق في البحث لا يعرفها إلا الأقلون من الأدباء المصريين، وسمعت أسماء كتب مصرية جديدة في السوق، لم يعرفها بعد في مصر إلا مؤلفها والصفوة من أصحابه. دار جدال حول معارك أدبية في جرائد مصر لم يكن مبلغ علمي بها إلا عنوانها وكاتبها، وجرت مصاولات، وتداولت آراء، وتنوعت أساليب الحديث، وخرجت بالصمت عن لا ونعم، وطارت خواطري إلى مصر، وإلى مجالس الأدباء في مصر، وإلى حظ الأدب والأدباء في مصر، وأطرقت من حياء». مجلة الرسالة، العدد 540، 8 نوفمبر، 1943، ص: 899.
11. انظر، مجلة الرسالة، العدد 265، 1938م.
12. نفسه، العدد 659، 1946م، ص: 199.
13. نفسه، العدد 602، 1945م، ص: 199.
14. نفسه، العدد 527، 1943م، ص: 639.
15. نفسه، ص: 640.
16. نفسه، العدد 531، 1943م، ص: 719.
17. نفسه، العدد 275، 1938م، ص: 1244.
18. النشاشيبي، فلسطين وصاحب الرسالة، المصدر السابق، العدد 266، 1938م، ص: 1316.
19. النشاشيبي، فلسطين والأستاذ الأكبر شيخ الأزهر، العدد 253، 1938م، ص: 797.
20. النشاشيبي، الأعراب، نحن الذين بلغوا الرسالة، مجلة الرسالة، العدد 530، 1943م، ص: 688.
21. إحسان عبد القدوس، الأعراب، الرسالة، العدد 531، ص: 738.
22. مجلة الرسالة، العدد 262، 1938م، ص: 1123.
23. النشاشيبي، قاسم أمين هل كان كردياً، العدد السابق، العدد 255، 1939م، ص: 848.

24.طأمن: سكنها وخفف منها.

25.النشاشيبي، الثورة الصينية، مجلة النفائس العصرية، مجلد 2 السنة الرابعة، شباط 1912م، ص: 65.

26.النشاشيبي، كلمة في اللغة العربية، (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1925م) ، ص: 97.

27.انظر: أنور الجندي، المحافظة والتجديد في النشر العربي المعاصر في مائة عام 1940 (القاهرة: مطبعة الرسالة، 1960م) ، ص: 363.

28.مجلة الرسالة، العدد 207، ديسمبر 1946م، ص: 1401.

29.أحمد زكي مبارك، الحديث ذو شجون، العدد 397، فبراير 1941م، ص: 148.

30.النشاشيبي، تصويبات، العدد 401، مارس 1941م، ص: 304.

31.المصدر نفسه والصفحة نفسها.

32.نفسه، العدد: 234، نوفمبر 1938م، ص: 2248.

33.النشاشيبي، نهج البلاغة، المصدر السابق، العدد 337، ديسمبر 1939م، 2318.

34.النشاشيبي، من جديد، مجلة الرسالة، العدد 4174، ص: 88.

35.المصدر نفسه والصفحة نفسها.

36.المصدر نفسه، العدد 410، مايو 1941م.

37.زكي مبارك، عثمان زناتي، العدد 411 مايو 1941م: 685.

38.الرسالة، العدد 425، أغسطس 1941م، ص: 1077.

39.الرسالة، العدد 421، يوليو 1941م، ص: 964.

40.المصدر نفسه والصفحة نفسها.

41.المصدر نفسه، العدد 422، 1940م، ص: 1048.

42.المصدر نفسه، عدد 761، فبراير 1948م، ص: 129.

43.النشاشيبي، الأستاذ العقاد وامرؤ القيس، العدد 267، 1938م، ص: 1354.

44.النشاشيبي، في اللغة، المصدر السابق، العدد 407، ابريل 1914م، ص: 573.

45.النشاشيبي، نسائم الأستاذ علي الجازم، المصدر السابق، العدد: 239، يناير 573، ص: 194.

46.المصدر السابق، العدد 284، 1938م، ص: 2034.

47.المصدر السابق، العدد 761، فبراير 1948م، ص: 48.

48.د. إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، 1987م، المقدمة.

خامساً- إسعاف المفكر المسلم:

يعرف إسعاف النشاشيبي في المحافل الأدبية والفكرية بأنه أديب فذٌ وخطيب مُدره ولغوي محقق يعد في الطبقة الأولى من اللغويين العرب الذي برزوا في النصف الأول من هذا القرن، وربما لا يعرف كثيرون أن لأديبنا بالإضافة إلى ذلك مجالات إبداع أخرى جال فيها قلمه باحثاً منقباً، متأملاً في واقع أمته، محاولاً إصلاحه وتقويم المعوج فيه، ونقد كل مظاهر الانحراف التي طرأت عليه.

لقد بدأ إسعاف –كما لاحظ أستاذنا الدكتور اسحق موسى الحسيني– شاعراً وأديباً ومنشئاً وناقداً، وانتهى فقيهاً مجتهداً، قوي الحجة ناصع البيان، كأنه من فقهاء المسلمين في صدر الإسلام الذين يتخذون من اللغة وسيلة للتفقه في الدين، وفهم أسرار القرآن الكريم (1).

إن هذا الانعطاف الفكري في حياة إسعاف أضاف – من غير شك– بعداً جديداً وجانباً خصباً إلى أبعاد شخصيته العلمية الحافلة، المتعددة الجوانب، كما وضع صورته في إطارها الصحيح بعيداً عن التشكيك والشبه التي يثيرها المغرضون، فالرجل –كما يظهر من أعماله ومواقفه– من المفكرين العرب البارزين الذين أسهموا في صياغة الأسس النظرية للحركة الإصلاحية في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الأمة العربية في العصر الحديث، كما أنه من المفكرين القلائل الذين أثروا من خلال آرائهم ونشاطهم وتلاميذهم في نمط التفكير السائد في بلادهم، حتى غدت تعاليمهم الأساس الكامن لكثير من العلاقات الاجتماعية والأفكار الدينية والإصلاحية لدى الإنسان العربي في الوقت الحاضر.

ومع هذه الشهرة العريضة والمكانة الرفيعة، فما زال إسعاف علماً موضوعاً يحتاج إلى الدرس والمناقشة وإعادة التقويم، فهو صاحب منهج فكري جديد ومبتكر، كما أن له إسهاماً رائداً في مسيرة الفكر الإسلامي ومشاركة ناجعة في تقويم هذا الفكر، ورصد حركته وتسليط الأضواء عليه، ومع ذلك لم يحظ من أرباب البحث بمن يفيه حقه، فيكشف عن سمات منهجه وطريقته واتجاهات فكره المختلفة.

وقد كان هذا مما حفزني وحبب إلي الكتابة في هذا الموضوع، والمشاركة به في مهرجان تكريم إسعاف الذي بادر لإقامته مركز الأبحاث الإسلامية في القدس الشريف، كما دفعني لاختياره إحساسي العميق بأن المسلمين في تخلفهم وانحدارهم لا يمكن أن ينهضوا نهضة حقيقية إلا بالبحث عن ذاتهم الحضارية بحثاً واعياً، واستلهام تعاليم دينهم، وثقافتهم التاريخية الخاصة، حتى يتسنى لهم متابعة السير على طريق أسلافهم في بناء الحضارة.

ومن هنا فإن دور إسعاف وغيره من المفكرين المعاصرين يجب أن يحظى بالاهتمام والدراسة؛ لأن الفضل يعود لهم في بعث النهضة العربية الجديدة باعتبارهم الرواد الأوائل الذين وجهوا طاقاتهم وجهودهم في ميدان الإصلاح ومقاومة المناهج الدخيلة على الفكر الإسلامي.

لقد كان إسعاف في تاريخه حلقة متصلة بالنضال في وجه الاستعمار الأجنبي، وبالحركة العلمية والفكرية العربية في الفترة منذ عام 1900م تقريباً، حتى وفاته عام 1948م. ففي هذه الفترة القصيرة ألف إسعاف في العديد من القضايا الدينية والتربوية والسياسية، مضمناً كتاباته آراءه في الموضوعات التي كانت مطروحة في عصره، وفيها جميعا لم ينعزل عن قضايا شعبه وأمته، وإنما كان البعد الاجتماعي والبعد الديني يلتقيان في نسق واحد يظل خلاله وعي مفكرنا حاضراً يقظاً.

وقد كان لهذه الظاهرة – من غير شك تأثير قوي في نفوس الذين تتلمذوا على يديه مباشرة أو قرأوا ردوده ومقالاته التي توزعت بين الصحف والمجلات العربية، والتي جمع بعضها فيما بعد في كتابه القيِّم (الإسلام الصحيح) ، الذي وصفه في المقدمة معتزاً به بأنه كتاب «يثبت للمسلم دينه، ويقوي إيمانه ويقينه. ويحامي عن كتاب **الله**، ويذود عن رسول **الله**، ويدعو الناس كافة إلى هدى **الله**» (2) .

عرض النشاشيبي في هذا الكتاب وفي سائر مقالاته وردوده وتعقيباته خلاصة رأيه واجتهاده في بعض المسائل التي تهم المسلمين وتتصل بحياتهم، وخرج من ذلك كله –كما فعل كثير من المفكرين والمصلحين الذين تتابع ظهورهم منذ بداية هذا القرن– بمجموعة من المواقف والقيم التي نظر إليها على أنها موضوعات مطلوبة أو مرغوب فيها؛ أو مشتهى تحقيقها للفرد أو للهيئة الاجتماعية، باعتبارها شروطاً لا محيص عنها من أجل الخروج من حالة الانحطاط والتمزق التي يعاني منها المجتمع العربي والإسلامي.

ولعل أهم القضايا التي توقف عندها إسعاف طويلاً محاولاً تعليلها، ودراسة أبعادها والتنبيه إلى مكامن الخطورة فيها؛ ذلك الصراع الذهني المرير الذي استفحل أمره واستشرى خطره بين أبناء الأمة الواحدة، فمن المعروف أن أخطر ما حل بالأمة الإسلامية في تاريخها الطويل ذلك الانقسام الذي حل بالمسلمين وجعلهم شيعاً وأحزاباً متناحرة، وطبع مجتمعهم بطابع التدافع والمنابذة بفعل القوى المعادية للإسلام التي تسعى دائماً لإحداث شرخ عميق في جسم الأمة الإسلامية، ينهك قواها، ويبدد قدراتها، ويجعلها مشلولة الحركة عاجزة عن ممارسة دورها المنتظر في بناء الحضارة الإنسانية.

من أجل ذلك ركز إسعاف في كتابه: «الإسلامي الصحيح» على هذه القضية وناقشها

مناقشة مستفيضة. وقد اتضح له من خلال دراسته المتعمقة في الفكر الإسلامي، واطلاعه الواسع على أمَّات مراجع التفسير والفقه مزالق كثيرة وثغرات بينة في فكر الشيعة ومعتقداتهم.

وتبين له أن الشيعة على اختلاف فرقهم يتحملون مسؤولية ذلك الانقسام الذي حل بالأمة الإسلامية، الذي ما زالت آثاره تتفاعل إلى أيامنا هذه، وذلك بخروج غالبيتهم عن الجماعة الإسلامية وتبنيهم لمعتقدات وتصورات دخيلة على الإسلام، ولا تمت بصلة للأسس التي قامت عليها الدعوة الإسلامية [3] .

من هنا وجه إسعاف همه لمناقشة الشيعة في صميم معقداتهم وتصوراتهم، ونهج نهج غيره من أئمة الفكر الإسلامي كابن تيمية الحراني وابن حزم الأندلسي وأبو بكر بن العربي وغيرهم في توهين المصادر التي استمدَّتْ منها هذه التصورات والتشكيك فيها، تمهيداً لهدم المرتكزات التي تستند إليها فرق الشيعة وتفويض دعائمها، وبخاصة فكرة الإمامة وما اتصل بها من مفاهيم وتصورات أساسها التأويل الخاطئ للنص القرآني، وما تفرع عنها كذلك من اعتقادات جعلها الشيعة أصلا، وحملوا آيات القرآن عليها وهي العصمة والمهدية والتقية والرجعة [4] .

مفهوم الإمامة:

ينطلق الشيعة على المستوى النظري في فهمهم للإمامة بأن أهل البيت أولى بأمور المسلمين من غيرهم، وأعلم بما في البيت من سواهم، وأن الإمامة حق إلهي تتم بالنص والتعيين، لا بالنظر والشورى كما يرى أهل السنة [5] . يقول الشهرستاني: «ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين، لا يجوز للرسول– صلى الله عليه وسلم – إغفاله وإهماله وتفويضه إلى العامة وإرساله» [6] ، ويؤيده في ذلك أحد مفكري الشيعة وهو الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء حيث يقول: «الإمامة منصب إلهي يختاره الله بسابق علمه لعباده، كما يختار النبي، ويأمر النبي بأن يدل الأمة عليه ويأمرهم باتباعه» [7] .

وقد روى الكليني (ت 328هـ) في أصول الكافي عن أبي بصير عن أبي جعفر قال: كنت جالساً عنده فقال له رجل: حدثني عن ولاية علي، أمن الله أم من رسوله؟ فغضب ثم قال: بل افترضت كما افترض الله الصلاة والصوم والحج والزكاة [8] . وقال الكليني في موضع آخر» إن الإمامة فوق النبوة والرسالة والخلة» [9] .

وهكذا فالإمامة في نظر الشيعة أصل الدين وقاعدة الإيمان، من خالفها كفر، ومن

طعن فيها طعن في النبوة والرسالة، لأنها أصل وليست بفرع، والإقرار بها فرض علم متقدم على كل فرض مما أتى به الشرع، فلا يجوز أن تقام بالنظر والانتخاب، بل بالنص والتعيين من **الله** سبحانه على لسان رسوله، صلى **الله** عليه وسلم [10] .

ومع ذلك فإن من الإنصاف أن نشير إلى أن نفرا من كبار أئمة الشيعة، نظروا إلى الإمامة على أنها أصل من أصول المذهب لا غير، بمعنى أن منكرها لا يخرج عن ملة الإسلام، وإنما يخرج عن المذهب فحسب بعكس بقية الأصول [11] .

وأيا كان الأمر، فقد ناقش إسعاف هذه المسألة مناقشة تفصيلية. وأورد في كتابه أقوالاً لأئمة الفرق الإسلامية تظهر الاختلاف الواسع بينها حول مفهوم الإمامة وطريق وجوبها واشتراط النسب فيها، وعلق على ذلك قائلا: «فإن قلت: وآل البيت وحقهم في الخلافة؟ قلت: عترة النبي، أسرة النبي، جماعة النبي إنما هم المسلمون كلهم أجمعون، فليس للنبي قرباء ولا بعداء ﴿**ما كانَ محمدٌ أبا أحَدٍ منْ رجالِكُمْ ولكنْ رسولَ الله وخاتَمَ النبيين**﴾ (الأحزاب: 40) ، ولو كان للقربى أو القرابة عند رسول **الله** قدرٌ لعمَّل على الناس أقرباءه، أو كان في أيامه من بني هاشم عامل واحد في عمل [12] .

وقد ذُكِر في (العقد) أن العباس عم الرسول – صلى **الله** عليه وسلم– طلب إليه ولاية فقال: يا عم نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها (تضبطها) . و**الله** سبحانه وتعالى يقول في محكم آياته: ﴿**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم**﴾ أي من المسلمين لا من هذا البيت أو ذاك القبيل أو تلك الأمة [13] .

تفسير آية التطهير:

من أجل ذلك يعتقد إسعاف أن عبارة أهل البيت الواردة في قوله تعالى: ﴿**إنَّما يُريدُ الله لِيذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهيراً**﴾ [14] تطلق أصلاً وحقيقة على الأزواج خاصة، ثم تستعمل في الأولاد والأقارب تجاوراً. وهذا ما يثبته سياق المعنى في القرآن الكريم، ويؤكده سبب النزول. يقول: «وأهل البيت أو آل البيت هم نساء النبي فقط، لم يدخل معهم في ذلك القول داخل ولا دخلة ولا دخيل» [15] .

ويضيف إسعاف قائلا: إن أمرا يعتام (يختار) غير ما يريده **الله** في كتابه قل له: يا هذا هذا، هذا دين محمد لا دين دد [16] ، ولا دين ددن [17] ، ولا دين مجون، ولا دين اللاعبين العابثين، ولا دين الكهان والحازين والمشعبذين والمنجسين» [18]

والحق أن هذا لم يكن رأى إسعاف وحده، بل ذهب إليه كثير من أئمة التفسير والحديث، قال ابن أبي حاتم وابن عساكر برواية عكرمة ومردويه برواية سعيد بن جبير عن ابن

عباس: «إن هذه الآية لم تنزل إلا في أزواج النبي عليه الصلاة والسلام (19)[19] .

وقال الشوكاني في تفسيره: «قال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير: إن أهلَ البيت المذكورين في الآية هنَّ زوجات النبي – صلى **الله** عليه وسلم – خاصة، قالوا: والمراد من البيت، بيت النبي – صلى **الله** عليه وسلم– ومساكن زوجاته لقوله تعالى: ﴿**واذكرن ما يتلى في بيوتكن**﴾، وأيضا السياق في الزوجات: «يا أيها النبي قل لأزواجك» إلى قوله تعالى: ﴿**واذْكُرْنَ ما يُتلى في بُيوتِكُنَّ من آياتِ اللهِ والحِكْمَةِ إنَّ الله كانَ لطيفاً خبيراً**﴾ (الأحزاب: 34) [20]

على أن للشيعة في تفسير هذه الآية مذهباً آخر، حاولوا من خلاله تحديد لفظ (الأهل) وحصره في أفراد معينين من أهل بيت رسول **الله** – صلى **الله** عليه وسلم – وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من بعدهم. يقول الشيخ شرف الدين الموسوي: «والمراد بأهل بيته هنا مجموعهم من حيث المجموع باعتبار أئمتهم، وليس المراد جميعهم على سبيل الاستغراق لأن هذه المنزلة ليست إلا لحجج **الله** القوامين بأمره خاصة بحكم العقل والنقل «[21] . وبهذا التحديد استبعد الشيعة قسماً كبيرا من ذرية الرسول– صلى **الله** عليه وسلم – وأهل بيته كبناته الثلاث غير فاطمة، وأزواجهن وأولادهن، وأولاد علي– رضي **الله** عنه غير الحسنين، وذلك دون أن يبيتوا الأسس التي اعتمدوا عليها في هذا التقسيم [22] .

القرابة والآل:

وقريب مما سبق قول مفسري الشيعة أن كلمة (الآل) في قوله تعالى: ﴿**ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين**﴾ (آل عمران: 33) تختص بأهل البيت، فآل محمد صلى **الله** عليه وسلم في رأيهم هم أهل بيته لا غير. يقول السيد الموسوي في سياق رده على إسعاف: «وفضل العترة على غيرهم ثابت بقوله تعالى: إن **الله** اصطفى آدم... الآية، وقوله تعالى ﴿**أمْ يَحسُدونَ النَّاسَ على ما آتاهم اللهُ من فضله فقد آتينا آل إبراهيمَ الكتابَ والحكمةَ وآتيناهُم ملكاً عظيماً**﴾ (النساء: 53)، وقد فسر **الله** اصطفاء العترة في الكتاب في اثني عشر موضعاً وهذه خصوصية لا يلحقهم بها أحد» [23] .

وبعبارة قوية حادة يقيم اسعاف الدليل على تهافت هذا القول حيث يقول: «ليس معنى الآل في الآيتين كما خال. ليس معناه العترة أو ذوي القربى، والمقصود متضح، فآل ابراهيم هم قبيله وأهل دينه، ولن تعطى الآيتان غير ذلك اللهم إلا أن يجلب إليهما تفسير من عند (أهل السبت) فيقال: إن الكهانة لن تكون إلا في سبط هارون.

ونحن اليوم مع العربية لا العبرية وعند الإسلامية لا اليهودية، فقل عربياً واعقل عربياً ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون**﴾ (البقرة: 42)[24] .

ويضيف إسعاف مؤكداً هذه الحقيقة بقوله: فآل ابراهيم هم أهل دينه. وآل عمران هم أهل دينه آل محمد هم أهل دينه. هم السلمون كلهم أجمعون. هم المؤمنون المتقون، فليس آل محمد بني هاشم وبني المطلب، ولا بني قصي، ولا قريشاً، ولا العرب. آله المسلمون كلهم أجمعون، آله كل مسلم، آله كل متق (25)

ولا يكتفي إسعاف بذلك، بل يورد أقوالا وروايات عدة من كتب الحديث والتفسير والفقه، وكلها تجمع أن (الآل) تعني المؤمنين والمسلمين التابعين للنبي صلى **الله** عليه وسلم. ومن ذلك ما ورد في كتاب تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول، والفصل في الملل والنحل لابن حزم، وجامع البيان للطبرسي والدر المنثور للسيوطي ومفاتيح الغيب للرازي وشرح صحيح مسلم للنووي (26) .

وعلى هذا النحو يمضي اسعاف في مقارعة الشيعة، ونقض تأويلاتهم معولا على اجتهاده الخاص في فهم النص القرآني، ومستعيناً في بعض الأحيان بالأحاديث النبوية الصحيحة وأقوال أئمة التفسير والفقه. ففي قوله تعالى: ﴿**قلْ لا أسألَكُمْ عليهِ أجراً إلا المودَّةَ في القُربى**﴾ (الشورى: 23) ، يفسر الشيعة (القربى) في الآية بأنها تعني الأقرباء أو العترة حسب تعبيرهم، ويعتقدون بناء على ذلك أن من أوكد الواجبات على المسلمين إجلال أئمتهم وتطهيرهم، لأنهم نجوم **الله** في أرضه، وأعلامه في بريته، وخلفاؤه على عباده وأنواره في بلاده وحججه على خلقه (27) ، وقد ذهب ابن عربي في فتوحاته حدا أبعد من ذلك حيث قال: «ينبغي أن يقابل المسلم جميع ما يطرأ عليه من أهل البيت في ماله ونسبه وعرضه وذويه، فيقابل ذلك بالرضا والتسليم والصبر، ولا ينبغي له أن يذمهم بما لا يقع منهم أصلاً، فإن **الله** قد طهرهم. فليعلم الذام لهم أن ذلك راجع عليه ولو ظلموه، فذلك الظلم– في زعمه– ظلم لا في نفس الأمر، وإن حكم عليه ظاهر الشرع بأدائه، بل حكم ظلمهم ايانا في نفس الأمر يشبه جري المقادير علينا، فنحن لا نملك شيئاً سوى أن نقابل ذلك كله بالرضا والتسليم (28)

ويعلق إسعاف على هذا الرأي وما سبقه ساخرا فيقول: «هاد في بدء أمره يدعو إلى معتقد يراه حقاً (وهو حق) ، ويرى سعادة البشر في اتباعه، هل يكون اهتمامه بأن يود الناسُ أسرته أو لا يودوها ويواصلوها أو يقاطعوها؟ هو عن كل سخف في شغل شاغل. لأن صاحب العقيدة لا يلوي في الدنيا إلا على عقيدته، ولا يعرج إلا عليها، ولا يحفل إلا بها. عدوه من ناوأها، وإن كان أقرب الأقربين، وصفيه منتحلها، وإن كان أجنبيا منه من أجنبيين (29) .

ويمضي إسعاف في تعليقه قائلا: نعرف هذا، ونعرف أن سيد هذا الوجود لم يرسل إلى

بني فلان أو بني فلان، أو إلى قبيلة من القبائل، أو جيل من الأجيال، ولكنه أرسل للناس كافة». ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء: 107) (30)

ويرى النشاشيبي أن من الإساءة إلى رسول **الله** أن يقال: أنه قَرَّبَ وأبعد، وأعلى وأنزل، وأعطى ومنع مستهيناً بالكفاية، غير مكترث لاقتدار، ولا عاملاً بقول **الله**. بل مما ينعى على عظيم الناس، وزعيم من زعماء أمة محاباته ذوي قرباه، وإنزالهم حيث لم ينزلهم فضلهم ومسعاهم، في حين أن الأمر هنا أمر دنيا لا دين (31) .

وعلى هذا الأساس من التفكير يعتقد إسعاف أن الشيعة حين نهجوا نهجهم في تقديس أئمتهم وتفضيلهم على من سواهم قد سلبوا الإسلام أهم مزاياه وأعظم فضائله، وهي فضيلة المساواة بين البشر وعدم التمييز بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح، «فالإسلام – كما قال– هو دين التساوي ودين العدل والنصفة، فلا شريف ولا مشروف، ولا كبير ولا صغير، ولا أمير ولا مأمور، ولا قبيل أفضل من قبيل، ولا قوم خير من قوم» (32) . و**الله** تعالى ما أنزل فرقانه ليكون شرفا لقريش أو للعرب ﴿**إن هو إلا ذكرى للعالمين**﴾ الأنعام: 95)، ﴿**وذكرى لقوم يؤمنون**﴾ (العنكبوت: 51) (33) . فليس هناك طبقات وليس هناك سادة وغير سادة، وليس هناك شرفاء. وليس هناك آل بيت (34) ليت نيت (35) ، بل العبرة بقرابة الدين لا بقرابة الطين كما ذكر المقريزي في رسالة النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم (36) .

وتأكيداً لهذه الفكرة هاجم إسعاف كل مظهر يكرس الطبقية في المجتمع الإسلامي ويورث الانقسام فيه أو يدفعُ إليه «فليس عند المسلمين في الدين شعر تفرق بينهم، وليس في الإسلامية شرف ديني موروث يشرف وارثهم. وتلك الشطفة الخضراء، وهذه المصائب والعمائم الخضر، تلك النقابة نقابة الإشراف (37) في بعض البلدان. كل ذلك شعبذة ليس لها أصل في الإسلام» (38) .

من خلال هذه النصوص الحافلة والمستفيضة تتبين مدى إحاطة إسعاف بأبعاد القضايا التي يتصدى لمناقشتها، وعمقه في تناولها واستيعابه لأدلتها فهو –كما ظهر لنا في كثير من مواقفه وردوده– يجسد الطابع العقلي الجدلي حيث اعتمد على المنطق والمنهج الكلامي في توجيهه للآراء، واحتجاجه لما ذهب إليه بالرغم من أنه شن حملة قاسية على التأويل وعده باعثاً للفساد والاضمحلال الذي حل بالأمة الإسلامية حيث قال: «أصل خراب الدين والدنيا إنما هو التأويل الذي لم يرده **الله** ورسوله بكلامه، ولا دل عليه أنه مراده، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل؟ وهل وقعت في الأمة فتنة. كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل؟ وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل؟ (39) .

وقال في موضع آخر: إن تأويلاً تكاد تضج منه الآية، حديثاً معزوّاً إلى النبي، مثله لن يقوله النبي، هذا التفسير وهذا الحديث حربان للقرآن، وخصمان للنبي بيِّنان» [40] .

الأحاديث النبوية وروايات التفسير:

يدفعنا القول السابق إلى توضيح موقف إسعاف من الحديث النبوي، وقبول الروايات التفسيرية المبثوثة في كتب التفسير والتاريخ والسير. وهو موقف يثير الحيرة ويدفع إلى التساؤل، ولا سيما أن إسعافاً يدلي في مواضع كثيرة من كتابه بأقوال يوحي ظاهرها لأول وهلة بأنه يحصر أحكام الإسلام في القرآن، ويلغي الحديث والتفسير ولا يعتد بهما، من ذلك قوله: «وللإسلام في كتابه لا في الأحاديث ولا في التفاسير ولا في الأساطير ولا في الأضاليل ولا في الأباطيل. واللسان عربي جلي مبين فلا استبهام ولا استعجام. والقرآن يضوئ عن نفسه، ويجلي عن أمره، ويوضح بعضه بعضاً، ويهدي المستهدين إلى مقاصد هذا الدين».

ويضيف إسعاف قائلاً: «وقد جاء تأويل المؤولين وقصص القاصين وتحديث المحدثين، ونجم هوى الزائغين، ومشى ضلال الضالين، واعترض جدل المحاجين الجدليين، وبدت في التفسير عجائب، ولاحت غرائب. لكنها الشمس –باهرة نيرة في نهار لم يغم– لا تخفى. وإن كان في الدنيا كمه عمون، فهناك الناظرون المبصرون» [41] .

وفي موضع آخر يخاطب إسعاف المسلمين قائلا [42] : «يا مسلمون لا تعولوا إلا على كتاب **الله**. حسبنا كتاب **الله**، (ما فرطنا في الكتاب من شيء) .

من أجل ذلك تعرض إسعاف لحملة قاسية من بعض معاصريه، حتى أن أحدهم لم يتحرج من وصفه بالجهل، واتهامه بمخالفة الشرع ومعاداة الإسلام. يقول الشيخ محمد بن يوسف التونسي المعروف بالكافي: «إن المسلك الذي سلكه النشاشيبي في اعتبار الكتاب دون الحديث لم يسلكه غيره في علمي إلا أن يكون على شاكلته من الذين يظهرون الحنو على الإسلام والانتصار له وهم أعداؤه في الواقع.

واعتقد أن الأمر لم يصل بإسعاف إلى هذا الحد، فلا أخاله– وهو الخبير المتمرس في علم الحديث وروايته– يجهل ما للسنة من مكانة في التشريع الإسلامي، أو يغفل دورها في توضيح القرآن وبيان مقاصده ومعاضدته –كما قال الزركشي– على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة.

ولا أحسبه أيضاً، وهو الذي تنطق كتاباته وأبحاثه بما ينبئ عن علو مرقاه ورسوخ قدمه في ميدان الحديث، بغافل عن ذلك التحذير النبوي الوارد في قوله (صلى **الله** عليه

وسلم) : «يوشك بأحدكم أن يقول هذا كتاب **الله** ما كان فيه حلال أحللناه وما كان فيه من حرام حرمناه، ألا من بلغه عني حديث فكذب به فقد كذب **الله** ورسوله والذي حدثه» (45) .

من هنا ينبغي علينا ألا نأخذ أقوال إسعاف السابقة بدلالاتها الحرفية أو ظاهر معانيها، لأنه في الحقيقة لا يعني ذلك، ولا يرمي إليه بدليل أنه استشهد بمجموعة كبيرة من الأحاديث الصحيحة، ضَمَّن كثيراً منها في ردوده على المناوئين والمتحاملين على الدعوة الإسلامية، كما أنه اختار مجموعة أخرى وضمنها كتابيه المدرسيين (البستان) و (مجموعة النشاشيبي) كنماذج تحتذى للتربية وتقويم النشء.

وزيادة على ذلك فقد أقر إسعاف في غير موضع من أبحاثه ومؤلفاته بجهود السلف وبراعتهم في علم الجرح والتعديل، ودقتهم في التمييز بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة، فليس في الدنيا –على حد تعبيره– أمة عنيت بما يعزى إلى صاحب نحلتها عنايتنا بأحاديث النبي الأعظم. فقد بذل الأئمة رحمهم **الله** المجهود، بل فوق المجهود في أمر الحديث ورجاله، وأبدعوا في مؤلفاتهم وتفننوا وأفردوا كل نوع منه ومن رواته بالتصنيف المجود، لقد كانوا في دقتهم وتحريهم وإحاطتهم وإتقانهم معجزة **الله** في المؤلفين (46) .

فالمسألة إذن لا تعدو كونها من باب التحرز والحيطة أمام الكثرة من الأحاديث الموضوعة التي فتحت باب الخلاف على مصراعيه، وجعلت الهوة سحيقة بين المذاهب الإسلامية، وبخاصة مذهب أهل السنة والشيعة.

وقد أشار إسعاف إلى هذه الظاهرة موضحاً أسبابها ودواعيها فقال: «إن كتب العلم لتنبئنا بأن الرواة كانوا يتقربون إلى الخلفاء والسلاطين والنبهاء في الدولة برواياتهم، فكانوا يضعون الأحاديث ويختلفون ما لم يكن ابتغاء خير يأملونه برواية قول أو شعر استبدوا هم بمعرفته»؟؟ (47) .

وقال في موضع آخر: «وربما صاغ العلماء والأدباء الحديث لينصروا مقالة لهم أو نحلة كما فعلت جماعة علي في تزوير بعض خطبه، وكما فعل هؤلاء في اختلاف الكلام المعزو إلى فاطمة والمنشور في كتاب (المنظوم والمنثور) لأحمد بن أبي طاهر، ليضعوا من مقدار صديق النبي وليحزنوا به شيعتهم» (48) .

وأكد إسعاف هذه الحقيقة برواية قالها أحد شيوخ الخوارج، بعد أن أعلن توبته وجاء فيها: «إن هذه الأحاديث دين فأنظروا ممن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثاً (49) ، ونقل قولاً لابن حزم جاء فيه: «وعمدة هذه الطوائف كلها في الاحتجاج أحاديث موضوعة مكذوبة لا يعجز عن توليد مثلها من لا دين له ولا حياء» (50) .

واستشهد إسعاف بالإضافة إلى ذلك بمجموعة أخرى من الأحاديث والروايات اقتبسها

من كتب التفسير ومجامع الأحاديث عند الشيعة، ليدلل على اضطراب الرواية التاريخية وتناقضها، وغلو أصحابها وإغراقهم في تأويل الآيات تأويلاً متعسفاً يخرجها عن دلالتها الضمنية وسياقها المعنوي، ومن ذلك ما يرويه الأمام الكليني في كتابه الكافي عند تفسير قوله تعالى: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾ (الأعراف: 180)، حيث يقول: «نحن والله أسماء الله الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا» ويعلق النشاشيبي على ذلك قائلاً: «والكافي عند الشيعة بمنزلة الجامع الصحيح للبخاري عند السنة، فهل يلام مسلم عربي أو غير عربي وقت ما يسمع هذا التفسير إن ثار وفار؟» [51]».

من أجل ذلك كله شكَّكَ النشاشيبي في صحة هذا الكتاب وضعف كثيراً من الأحاديث الواردة فيه، وبخاصة تلك التي تنسب إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) القدرة على معرفة الغيب والتنبؤ به، أو تلك التي تسمو به وبالأئمة من بعده إلى منزلة تفوق منزلة الأنبياء والرسل، أو ما يشير منها إلى حدوث تغيير بالنقص أو بالحذف في القرآن الكريم، وهذا وحده كاف –كما قال النشاشيبي– للحكم على الرجل ووضعه في الميزان الصحيح لأن من يورد مثل هذه الأقوال ويصنفها لا يمكن أن يعد في نظر المخلصين لدينهم ثقة في نقله عن الأئمة رضوان الله عليهم.

وجدير بنا أن نذكر أن نفراً من مفكري الشيعة في العصر الحديث نهجوا نهج النشاشيبي في التشكيك في التراث التاريخي للشيعة، وبخاصة ما دوِّن منه في العهد الصفوي، وفندوا ما ورد في ذلك التراث من خرافات وأباطيل، وطالبوا بإجراء فحص دقيق لتراث الشيعة وبإعادة نظر شاملة في التراث الشيعي الصفوي الاستبدادي الذي يسود الأوساط الشيعية في الوقت الحاضر [52] .

وهكذا يتفق أولئك المفكرون مع النشاشيبي في دعوته إلى غربلة التراث الإسلامي وتنقيته من الشوائب التي علقت به خلال فترات التاريخ القائمة وعهوده الاستبدادية. واعتقد أنهم جميعاً محقون في دعوتهم؛ لأن التراث الشيعي، وبخاصة في عهد الدولة الصفوية، طرأ عليه– نتيجة للأهواء والتقلبات السياسية، ونظراً لتحكم النعرات الإقليمية الضيقة– تعديلات جوهرية أسهمت في تكريس الانقسام وتوسيع شقة الخلاف بين المسلمين.

وتأكيداً لهذه الحقيقة، فقد لاحظ أحد الباحثين المحدثين في كتاب خصصه للدفاع عن أبي هريرة (رضي الله عنه) الذي يتهمه بعض الشيعة تحاملاً بالكذب والتدليس، وإن مصادر الحديث المتعمدة عند الشيعة تغفل هذا الصحابي الجليل المشهور بروايته، ومن هذه الكتب كتابا: الرجال والفهرست للطوسي (ت 460 ه) ، (وهو شيخ الطائفة طراً في جميع عصورها) ، والرجال للشيخ الكشي. ويرى هذا الباحث أن لهذه الظاهرة مغزى مهماً

للشيعي المنصف، لأن فيها برهاناً على أن تضعيف أبي هريرة واتهامه قول محدث متأخر عند الشيعة، ومما يؤكد ذلك أن أبا داود الحلي المولود سنة 647 هـ يذكر أبا هريرة في القسم الأول من كتابه المخصص لذكر الممدوحين ويقول: «عبد الرحمن أبو هريرة معروف من أصحاب الرسول –صلى الله عليه وسلم– ذكره الشيخ الطوسي في كتاب الرجال» (53) ، ولكن الكتاب المطبوع والمنسوب حالياً إلى الطوسي يخلو من أية إشارة إلى أبي هريرة ما يدل على أن ثمة تحريفاً وتزييفاً أصاب الكتاب من بعد أبي داود الحلي (54) .

ربما كان هذا مبرراً لتحفظ النشاشيبي ورفضه لقبول طائفة كبيرة من أحاديث الشيعة ورواياتهم التفسيرية، ولكن ذلك لا ينبغي أن يصل به أو بغيره إلى حد إنكار الحديث عامة ورده وعدم التعويل عليه، كما دل عليه ظاهر النص الذي استشهدنا به في بداية هذا الفقرة أو كما بدا في نقده لكتاب نهج البلاغة حيث استشهد بأقوال وروايات يلمح فيها شيء من التشكيك بأمَّات كتب الحديث ومجامعه الصحيحة (55) .

وبعد، فلعل أهم ما يلاحظه الباحث بعد هذه الجولة الشائقة في فكر إسعاف الإسلامي أن إسعافاً يمتلك عدة المفسر والفقيه في آن، فقد كان –كما أظهرت كتاباته ومواقفه الفكرية– طلعة واعيا، حر الفكر واسع الأفق، لم يكتف بالكتب العربية أو الإسلامية المأثورة، ولا بمراجع الفرق الإسلامية ومصادرها المختلفة، وإنما سار على الدرب الذي سلكه العلماء المتنورون من معاصريه مثل: الإمام محمد عبده ورشيد رضا وشكيب أرسلان وغيرهم، حيث قرأ الكتب المترجمة والبحوث العلمية والاجتماعية التي كتبها نفر من المفكرين الغربيين.

وقد كانت حجة إسعاف في ذلك أن الغرب هو موطن العلم ومصدر الاشعاع، كما أن المدنية الغربية في نظره هي ينبوع التعاجيب، «ففيها النظام والقوة والفن والجلد والابتداع، فالخير كل الخير في أن نعرفها، والشر كل الشر في أن نجهلها، لأننا إذا عاديناها وهي السائدة الساطية استعلتنا، وإذا ما نبذنا عليها حقرتنا، وهي مدينة غمرت الكرة الأرضية فليس ثمة عاصم وأن أويت إلى المريخ» (56) .

من أجل ذلك يعتقد إسعاف أن من واجب المسلمين الإسراع والمبادرة لاستعارة كل ما يفيدهم في حياتهم، ويؤدي إلى رقيهم وتمدنهم، فالحركة –كما قالوا– ولود والسكون عاقر (57) . ونحن في عهد الترجمة وعند العرب علوم كثيرة ومباحث فيها دقيقة، وفرض عين أن تنقلها العربية وأن يفقهها نشؤها (58) ولنا في ذلك قدوة، «فقد عكف الآباء على علوم يونان عكوف الصوفي على أحزابه وأوراده، وطفقوا ينقلون إلى هذه اللغة ما ينقلون، ويشرحون ويلخصون ويهذبون وينتقدون، وقد تيمتهم بما اشتملت عليه من الآراء البارعة

الباهرة، والمباحث الرائقة الساحرة. وأخلق بعاشق العلم أن يستهويه، ولم يمقت الآباء آراء أفلاطون وأرسطو مقت الأبناء أقوال داروين وسبنسر وهيكل، ولم يُعرض عن الخير في ذلك الزمن إعراض الخلف، بل الخلف الخالف» (59) .

ولإسعاف بالإضافة إلى سعة الاطلاع، ورحابة الصدر قدرة لغوية فائقة، وبصر سديد في اللغة، فهو يعرف مواضع الكلم، ويدرك معاني المفردات، وله –فضلاً عن ذلك– فهم دقيق في مظان استعمالها. والشواهد على ذلك كثيرة يلمسها كل باحث في كتبه وتعليقاته التي اتسمت في مجموعها بالموضوعية مع دقة الاجتهاد، وبراعة الاستنباط.

وهناك ملاحظة أخيرة وهي أن بعض ردود إسعاف ومناقشاته اتسمت بطابع القسوة تارة، وبالسخرية اللاذعة ممن يخالفونه الرأي تارة أخرى. وهو أسلوب يرى فيه بعض الباحثين تجريحاً يورث الأحقاد والضغائن، وينفر الخصوم، ويحملهم على التمادي في اللجاج والعناد. وهي ظاهرة تسجل لغير صالح النشاشيبي.

ومع وجاهة هذا الرأي فإن الباحث المنصف لا يملك سوى الإقرار بأن ردود إسعاف وتعليقاته كان لها على الرغم من قسوتها أحياناً صدى إيجابي وأثر ملموس في حركة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، فمن ناحية: سدت كتاباته ثغرة أساسها القصور في معرفة الإسلام والتعمق في دراسة نحله ومذاهبه المختلفة، ومن ناحية أخرى: فتحت باب الحوار بين المفكرين السنة واخوانهم الشيعة (60) وبدأت تظهر في الأفق محاولات للتقريب بين المذهبين، وإيجاد نقاط للالتقاء بينهما. وقد تبنى هذا الاتجاه نفر من المخلصين نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ محمود شلتوت، والحاج أمين الحسيني والشيخ حسن البنا وعلي بن إسماعيل ممثل الشيعة الزيدية في اليمن والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء والشيخ عبد الحسين شرف الدين الموسوي وغيرهم.

إن هذه المحاولات تعد في رأي كثير من الباحثين تحولاً إيجابياً عظيم الأهمية، ونقطة انعطاف مهمَّة في الفكر الإسلامي الإصلاحي في تاريخنا المعاصر، لأنها جاءت بعد قرون عديدة من الظلمات والفتن المذهبية، وفي وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى وصل حبل الشمل؛ ونظم عقد الاجتماع، وبخاصة أن أعداءنا المتربصين بنا، الدوائر قد عقدوا ضمائرهم على الغدر بنا وسلكوا في نكايتنا كل طريق.

الهوامش:

1. الدكتور إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، مجلة المواكب (مجلد1، العددان 7، 8، تموز، آب 1984م) ، ص: 29.
2. محمد إسعاف النشاشيبي، الإسلام الصحيح (بيروت: دار العودة، 1985) المقدمة، ص: 45.
3. ذكر الدكتور النعمان القاضي في كتابه: (الفرق الإسلامية في الشعر الأموي) كلاماً مشابهاً لما ذكره النشاشيبي حيث قال: إن التشيع أخذ صورة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الإسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية، وأن كل هؤلاء كانوا يصبغون التشيع بصبغة عقائدهم القديمة". ولأحمد أمين إشارة أخرى إلى ذلك جاء فيها: والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته. كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت شعاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم. انظر، د. النعمان القاضي، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، ص: 158 – 159، أحمد أمين، فجر الإسلام، ص: 276. والواقع أن هذا الحكم إن كان يصدق على غلاة الشيعة أو الرافضة كما يسمون، فإن الأمر يحتاج إلى تمحيص فيما يتعلق (بالأمامية الاثني عشرية) (والزيدية) لإنهما فيما عدا مسألة الإمامة يقتربان من السنة في كثير من الأمور.
4. راجع التعريفات الخاصة بهذه العقائد والعوامل المؤثرة في نشأتها: د. عرفان عبد المجيد، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، ص: 43 – 62، عبد الحسيب طه، أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، ص: 73 – 106، أبو محمد الحسن بن موسى الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص: 24 وما بعدها، أبو عبدالله محمد بن محمد العكبري (المفيد) ، تصحيح اعتقادات الأمامية، ص: 66 وما بعدها.
5. انظر، محمد بن محمد الكاظمي، إحياء الشريعة في مذهب الشيعة، 1: 266، د. محمود بسيوني فودة، التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية، ص: 98.
6. الشهرستاني، الملل والنحل، 1: 146.
7. محمد الحسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، ص: 133 – 134.
8. أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي، 2: 280.
9. انظر، احسان الهي ظهير، الشيعة وأهل البيت، ص: 26.

10.راجع عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أصول الدين، ص: 279، كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، ص: 95، ابن خلدون، المقدمة، ص: 348.

11.محمد حسين الزين، الشيعة في التاريخ، ص: 47.

12.إسعاف النشاشيبي، الإسلام الصحيح، ص: 41.

13.نفسه، ص: 40.

14.الأحزاب: 33.

15.الإسلام الصحيح، ص: 43.

16.(ددٍ) و (ددنْ): اللهو واللعب.

17.الإسلام الصحيح، ص: 45.

18.الشيعة وأهل البيت، ص: 20.

19.الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فن الرواية الدراية من التفسير، 4: 270، وانظر تفصيلاً أكثر لهذه المسألة في: الشيعة وأهل البيت، ص: 15 – 22 الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 5: 238، ابن كثير 3: 94.

20.عبد الحسين شرف الدين الموسوي، المراجعات، ص: 24.

21.الشيعة وأهل البيت، ص: 22.

22.الإسلام الصحيح، ص: 167.

23.نفسه، ص: 169.

24.نفسه، ص: 175.

25.راجع هذه الأقوال بنصوصها في الإسلام الصحيح، ص: 168 – 175.

26.انظر، الطبرسي، مجمع البيان لعلوم القرآن، 25: 49 – 50، مختصر ابن كثير، 3: 225.

27.ابن عربي، الفتوحات الملكية، ص: 198.

28.الإسلام الصحيح، ص: 46.

29.نفسه، ص: 70.

30.نفسه، ص: 79 – 80.

31.نفسه، المقدمة، ص: د.

32.نفسه، ص: 267.

33.اعتقد أن هذا القول فيه قدر من المبالغة، إذ لا ينكر أحد أمر آل البيت ووجوب توقيرهم واحترامهم، فهناك طائفة كبيرة من الأحاديث تنص على ذلك وهي مبثوثة في كتب التفسير وفي الصحيحين وكتب الطبقات، يستطيع كل إنسان الاطلاع عليها ودراستها، ولكن الاحترام والتوقير شيء وتقديس الأئمة وتأليههم شيء آخر.

34.الإسلام الصحيح، ص: 73.

35.نفسه، ص: 77.

36.ربما كانت هذه العبارة سبباً في اتهامه من قبل بعضهم بأن وراء حملته على الشيعة مآرب ودوافع سياسية انظر محمد حسين الزين، الشيعة في التاريخ، ص: 16.

37.الإسلام الصحيح، ص: 299.

38.نفسه، ص: 115.

39.نفسه، المقدمة، ص: ز، وللأئمة المسلمين أقوال عدة في تحريم التأويل والنهي عن الالتجاء إليه. وقد جمع ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله، والشاطبي في الاعتصام طائفة كبيرة منها قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ولا فاسق بين فسقه، ولكن أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أزلفه بلسانه ثم تأوله على غيره تأويله، أنظر ابن عبد البر، يوسف بن عبدالله النمري، جامع بيان العلم وفضله، 2: 132 – 150 وأنظر الشاطبي، الاعتصام، 3: 30.

40.الإسلام الصحيح، المقدمة، ص: ج.

41.نفسه ص: 95.

42.يوسف بن محمد الكافي، نقض إسلام النشاشيبي الصحيح بصريح الأدلة التي يفهمها الأعجمي والفصيح (دمشق مكتبة الشرق 1354هـ) ، ص: 9 – 10.

43.الزركشي البرهان، 2: 129.

44.ابن عبد البر، 2: 189.

45.أنظرن مجلة الرسالة، عدد 213، السنة الرابعة، يوليو 1939م.

46.كلمة في اللغة العربية، ص: 72.

47.نفسه، ص: 73.

48.الإسلام الصحيح، ص: 72.

49.نفسه، ص: 230.

50.نفسه، ص: 93.

51.أنظر، فاضل رسول، هكذا تعلم علي شريعتي، ص: 45.

52.أنظر، عبد المنعم صالح العلي العزى دفاع عن أبي هريرة 207.

53.نفسه، ص: 208.

54.أنظر، الإسلام الصحيح، ص: 319.

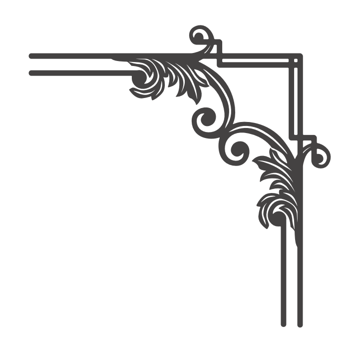
55.إسعاف النشاشيبي، قلب عربي وعقل أوروبي، ص: 5.

56.إسعاف النشاشيبي، العربية وشاعرها الأكبر، ص: 13.

57.إسعاف النشاشيبي، اللغة العربية والأستاذ الريحاني، ص: 46.

58.إسعاف النشاشيبي، سير العلم وسيرتنا معه، ص: 11.

59.من الإنصاف أن نشير إلى أن كثيراً من مفكري الشيعة تتسع صدورهم لكل حوار هادف، ويظهرون ميلاً شديداً للالتقاء مع الأطراف الأخرى. وقد شهد لهم بذلك أبو بكر بن العربي الفقيه حين زار ساحل فلسطين. والتقى نفراً من شيوخهم في مدينة عكا حيث قال: "وفيهم لعمر الله –وإن كانوا على باطل– انطباع وإنصاف وإقرار بالفضل إذا ظهر". انظر الشاطبي، الاعتصام، 1: 195.



الفصل الرابع

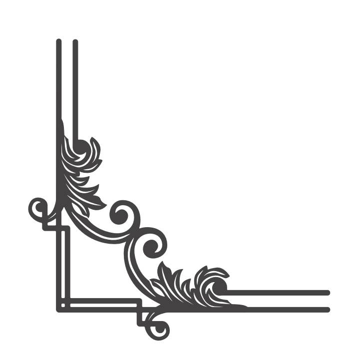
محمد إسعاف النشاشيبي
بين المحافظة والتجديد

- مقدمة.

- إسعاف الأديب المحافظ.

- التجديد في فكر النشاشيبي.

- إسعاف ومشكلات الحضارة.



الفصل الرابع

محمد إسعاف النشاشيبي

بين المحافظة والتجديد

مقدمة:

تشكل الحقبة التي عاشها محمد إسعاف النشاشيبي منذ ولادته عام 1882م، وحتى وفاته عام 1948م مفصلاً رئيساً في التاريخ الفلسطيني المعاصر، فقد شهد في مطلع شبابه حالة الفوضى والضعف التي سادت الدولة العثمانية، مما أدى إلى هزيمتها على أيدي الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، على الرغم من المحاولات الإصلاحية التي قامت بها، والتي تمثلت بإصدار دستور للسلطنة العثمانية عام 1908م يقوم على المساواة العرقية، وتحقيق بعض المطالب العربية.

ونجم عن هذه الهزيمة وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وشروع السلطات البريطانية في تنفيذ ما ورد في وعد بلفور الذي أصدره وزير خارجيتها، وما تضمنه من بنود وتوصيات، حيث قامت بتدابير مختلفة لتحقيق فكرة أقامة الوطن القومي اليهودي، لعلَّ أبرزها تشجيع الهجرة اليهودية على فلسطين، والتضييق على سكانها العرب الذين كانوا يشكلون عبر القرون الأغلبية الساحقة من سكانها [1].

وعلى الرغم من المقاومة العنيدة التي أبداها الشعب الفلسطيني، فقد أثمر التحالف البريطاني الصهيوني عن إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين عام 1948م، وتمخض عن ذلك تشريد قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني، ولجوؤهم إلى البلدان العربية المجاورة، وبخاصة سوريا ولبنان والأردن. وقد فارق إسعاف الحياة بعد أن شهد بلاده تقسم بمشاركة الأمم المتحدة، ورأى مستقبل شعبه يتهدد، فأغمض عينيه قبل أن يرى ذروة المأساة، ولكنه استشعرها منذ بداية الانتداب البريطاني على فلسطين، وطالما حذر من عواقبها، «وهو الألمعي الذي يظن الظن، فيكون كمن رأى وسمع، ولذلك يمكن القول إن عصر إسعاف هو عصر انتقال الحلم الصهيوني من بداياته إلى تحقيقه في الواقع، مع ما رافقه من ظلم وتشريد وتقتيل واقتلاع للفلسطينيين» [2].

وأدت التجزئة السياسية للأراضي العربية بعد الحرب العالمية الأولى إلى نشوء حركات وطنية مستقلة، غير أن هذه التجزئة لم تحل– في الوقت نفسه– دون نشوء وعي عربي تخطَّى خطوط التقسيم الإقليمي، وأدى إلى شعور عربي بالمرارة بسبب نكث دول

غربية بوعودها الرسمية للعرب، وبسبب سياساتها تجاه القضايا العربية [3] ، وضاعف من حدة هذا الشعور وترسيخه، اعتقاد النخب الفكرية والثقافية العربية بأن السيطرة الغربية، ومحاولاتها الدائبة لتغييب الوعي العربي، تشكل العقبة الرئيسة التي تعترض تحقيق الطموحات العربية في الوحدة والحرية والاستقلال.

إسعاف الأديب المحافظ:

لقد شاء الله للأستاذ النشاشيبي أن يعايش غالبية هذه الأحوال والظروف، وأن يصاحب القرن العشرين منذ بداياته، فيشهد ذروة الاتصال بين الشرق والغرب ويرقب انبلاج النهضة العربية والإسلامية، وهي تواجه التحدي الاستعماري في وجهيه السياسي والثقافي.

وقد تفاعل النشاشيبي بفضل منهجه العقلاني مع مشكلة التحدي هذه، فبعد رحلة طويلة جاب فيها مناحي التراث العربي والإسلامي، ووضع يده على كنوزه وإنجازاته الحضارية التي اتسمت خلال مسيرتها الفاعلة في التاريخ بالإيجابية والعالمية، ترسخت قناعاته «بأن في الانكباب على القول القديم العتيق – كما قال – «خيراً كثيراً، بل إن فيه كل الخير، بل لا خير إلا فيه» [4] . إن التراث– حسب قوله– يحوي عناصر أصيلة صالحة للاستلهام، وهي كفيلة بجعل هذه الأمة تخطو على درب النهضة بأسرع مما صنع الآخرون. ولهذا رأى أن الواجب يحتم علينا أن ننمي هذا التراث، وأن نصوغه صياغة جديدة لأبنائنا، وأن نشوقهم إلى التعلق به وممارسته، وأن نحيي شواهده، لتكون نماذج حيَّة للأجيال المقبلة [5] .

وكان النشاشيبى في هذا المنحى قدوة يحتذى بها، ومثلاً أعلى يؤتم به، وقد غاص منذ مطلع شبابه في بطون أوابد كتب التراث [6] ، وعكف عليها دون سواها وقرأها قراءة متفحص مدقق، وعاشر أصحابها دهره ما رضي عنهم بديلاً، وحرص على محاكاتهم، والنسج على منوالهم، بل راضَ نفسه على أن يكون من طبقة أولئك الرواد الأفذاد، وظل قرابة أربعين سنة ونيِّف يكتب مهتدياً بهديهم، مؤتماً بإمامتهم، وما كانت كتاباته لتصدر إلا بعد مخاض عسير، فقد كان «يقضي ساعات في كتابة رسالة يجوّد ما وسعه التجويد، ويؤنق ما وسعه التأنيق، ولا عجب بعد هذا أن تفرَّد بأسلوب أنيق محكم ذي ألفاظ متينة متآخية، ونسيج قوي يستشعر قارئه أنه من مكنون صدره، وذوب فؤاده، ورهيف أحاسيسه ومشاعره» [7] .

من أجل ذلك عُرف النشاشيبي بين معاصريه بأنه تقليدي محافظ، واتهمه بعضهم بالتقعيد والتقعير والانخراط في جملة المقلدين الجامدين الذين يعزلون أنفسهم عن

المجتمع، ويضعون بينهم وبينه حجاباً كثيفاً، يجعلهم بمنأى عن همومه ومشكلاته، وطموح أبنائه للتغير والتطوير ومجاراة العصر. وشواهد هذا التقعيد ماثلة فيما اختاره إسعاف في كتاباته من ألفاظ التقطها من المعاجم لا من حياة الناس، مدفوعاً بعزلته عنهم واستعلائه عليهم، مما أضفى عليها قالباً من الغرابة والتكلف والمغالاة في حب القديم.

وقد أجمل أمين الريحاني آراء المعترضين على أسلوب النشاشيبي في عبارات موجزة، وجَّهها إليه بمناسبة صدور كتابه: (كلمة في اللغة العربية) حيث قال: «إن هذا الأسلوب في الأدب مثل ذاك البدوي في الحياة. هو مظهر عجيب يسترعي الأنظار، فيدهش ويطرب ويحزن معاً ولماذا؟! لأنه زائل. أحببت البدوي (والله) ، وكنت معجباً به، ولكني لا أستطيع، ولا أحب أن أكون مثله، وأحببت كلمتك، وكنت– وأنا أطالعها– معجباً بها، ولكني لا أستطيع، ولا أحب أن أكتب مثلها، ولا أظن أن هذا الأسلوب – أسلوبك– يكون مألوفاً أو معروفاً بعد خمسين سنة، والحكم للمستقبل، فقد يحكم عليَّ وعليك معاً، ولكننا في غير الأسلوب متفقان» [8] .

ويبدو أن النشاشيبي كان موقناً– على ما يبدو – بأن ما قام به عين التجديد لا التقليد، وقد رد عن نفسه تهمة التقليد في رده على الريحاني حيث قال: «قد ألاقي الكاتب العظيم من المتقدمين، فلا يسيطر علي، ولا أمشي وراءه، وله قوته وطريقته، ولي ضعفي وطريقتي» [9] . وقال أيضاً في رده ودفاعه عن نهجه في الكتابة والتأليف: «فلست إذن مقلداً في القول أحداً، وإنما هي ألفاظ عربية مضرية عرفتها، وأسلوب عربي بيِّن عقلته، وتلك جاءت، ثم كلام هو ذوب روحي، وابن نفسي وخليقتي وطريقتي» [10] .

وأردف النشاشيبي قائلاً: «وما هذه الألفاظ التي يطلبها مكانها ويحسبها بعض الناس غريبة – وما هي غريبة وما تشبه الغريب– إلا ألفاظ مضرية لا حميرية ولا يمانية، وليستْ من ألفاظ حضرموت أو الشحر. فلا تذمنَّها يا أخا العرب، واعرضها على السمع لا يمجُّها، وحرك بها اللسان فهو لا يستثقلها، وما غَرُبَ مثلها إلا تقهقر أمةٍ: القارئ في بدوها وحضرها في الألف واحد» [11] .

ولعل النشاشيبي– كما يتضح من عباراته الأخيرة– كان مدركاً لأبعاد العلاقة الجدلية بين نهضة الأمم وارتقائها من جهة، وبين عودتها إلى تراثها من جهة أخرى، فهو يعتقد أنه بعكوفه على تراث أمته، واستلهامه إياه في محاولاته الإبداعية، إنما يُساهم في بعث النهضة في مجتمع ران عليه الجمود والانغلاق لقرون عدة خلت. وقد طرح النشاشيبي في رده على من يسمون دعاة التجديد قائلاً: «ماذا يرى المتسمون بالمتجددين أو المجددين، وفي أي سبيل يهوون المسير؟ ألا يرون معي أن ننقلب إلى القديم فيجود القول ويستقيم،

وُتوَّخَى الوحدة العربية بصون الأساليب العربية، وتترجل الأمة وتتفحل من بعد خنثها وتأنثها باستظهار الكلام الفحل الجزل، ويتهذب ذوقها بمؤالفة الأقوال المهذبة المتنَّقاة، وتكون هذه الأمم العربية في الوجود شيئاً مذكوراً» (12) .

وقد لاحظ أحد الباحثين أن هذه الظاهرة ليست حكراً على أمة العرب، وإنما هي ظاهرة عامة وملموسة عند أية أمة تهفو إلى الصعود في مدارج التقدم والنهضة والرقي، يقول إبراهيم العلم: «على أن من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن أية نهضة في العالم كانت تعود إلى ماضيها المشرق، وهكذا عادت أوروبا في عهد نهضتها إلى أدب اليونان والرومان وفكرهم، ولا شك في أن إحياء اللغة العربية جزء لا ينفصل من النهضة العربية المنشوده» (13) .

وقد سبق لإسعاف أن أكدَّ هذه الحقيقة حين قال: «الانتباه الأدبي في الأمم يسبق الانتباه العلمي، فهذا بناء وذاك أساس» (14) . من هنا اقترنت حركة التجديد في الأدب – وفقاً لرأي الدكتور العلم– بإحياء اللغة وبالعودة إلى عهود الأدب العربي الزاهرة في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، فلا غرو أن ترى جلّ الرواد الذين قادوا الحركة الأدبية في فلسطين ذوي اتجاه تقليدي، إذ مالوا إلى المحافظة في التعبير في سياق الألفاظ والتراكيب.

ولم يكن إسعاف– في الحقيقة– بالصورة التي رسمها له معاصروه، وإنما كان جامعاً بين القديم والجديد، موفقاً بين الماضي والحاضر، ملائماً بين الأمس واليوم، حتى استوى فيه مزاج غريب خاص، يجمع بين العاطفة للقديم والتقبل والتفطن للجديد إن توافرت فيه مقاييس الجودة، «فليس كل جديد ينجم في الدنيا –كما قال– بجيِّد، وما كلُّ قديم بضارّه قدمه، ولا يرضى الحكيم عن الجديد إلا إذا جاد، والجيّد لا يُرفض بل يُستجاد، ويُحرص عليه وما نبذنا الجديد – وإن قال الشاعر القديم، أعني الحطيئة لكل جديد لذة– لجدته، لكن لفقدان جودته، فاغدُ علينا بالجديد الجيدّ نتقبله» (15) .

وهكذا يتضح أن النشاشيبي لم يكن متقعراً جامداً أو متحنطاً على قوالب الأقدمين وموضوعاتهم، بل عالج العديد من القضايا الأدبية واللغوية والدينية والتربوية والثقافية، مضمناً كتاباته وآراءه في الموضوعات التي كانت مطروحة في عصره، وفيها لم ينعزل عن قضايا شعبه ومجتمعه، إذ كان البعد الاجتماعي والبعد الأدبي يلتقيان في نسق واحد يظل خلاله وعي أديبنا حاضراً يقظاً.

وقد امتزجت في معالجاته لهذه الموضوعات إشراقة الفكر بحرارة الحس، وفوران العاطفة حيال ما يتعرض له وطنه من مخاطر تهدد مستقبله ووجوده المتجذر منذ فجر التاريخ في أرض أبائه وأجداده. وسأتناول بإيجاز جوانب التجديد في فكر النشاشيبي من

خلال الحديث عن مجالين رئيسين يكمل أحدهما الآخر، وهما: الجانب التربوي والجانب الفكري، وبخاصة موقفه من مشكلات الحضارة التي عاصرها وعايشها وتجنَّبت الحديث عن تجديده وإبداعه اللغوي والأدبي لكثرة من كتبوا فيه وتناولوه.

التجديد في فكر النشاشيبي:

أولاً- إسعاف المربي:

لم يتلق إسعاف في حياته دروساً في المناهج والأساليب التربوية في جامعة أو معهد تربوي، ولم يزاول مهنة التدريس سوى فترة يسيرة من عمره، فقد اندمج في سلك التدريس لأول مرة في حياته مدرساً لفترة قليلة في الكلية الصلاحية في بيت المقدس في أثناء الحرب العالمية الأولى، ودرَّس العربية لفترة وجيزة، في المدرسة الرشيدية في بيت المقدس في بدء الاحتلال البريطاني، ومع ذلك فقد غادر في تلاميذه أثراً لا يُمحى، وترك في نفوسهم بصمات تربوية رائدة كان لها تأثير مباشر في صقل شخصياتهم، وتنمية مداركهم، واطلاعهم على الجوانب المضيئة من حضارة أمتهم وقيمها الأخلاقية الرفيعة.

وقد عزا الدكتور إسحاق موسى الحسيني – وكان قد تتلمذ على يديه في سنيِّ دراسته الأولى– هذه الظاهرة الفريدة إلى أربعة أسباب: «الأول: شخصيته الفذة وتضلعه في علوم اللغة والأدب على الرغم من أنه لم يتلق في حياته تعليماً عالياً بانتظام، بل حصله بجده، وعلى طريقته الخاصة، والثاني: ممارسته المنقطعة النظير للعربية وما يتصل بها من علم اللغة والآداب والمعارف، والثالث: تعمقه في درس اللغة، أدباً وقواعد، هوى وطبعاً، لا صنعة وتكلفاً، ولذلك لم يسر على منهج معيّن، ولم يتقيد ببرنامج موضوع. والرابع: حسن اختياره النصوص الأدبية شعراً ونثراً، ووضعها بين أيدي طلابه مع إغرائهم بفهمها واستظهارها» (16) .

ونضيف إلى ما ذكره أستاذنا الحسيني سبباً خامساً هو انتماؤه العميق إلى شرقيته وعروبته وغيرته ومحبته وإخلاصه لدينه ووطنه ولغته العربية، فقد كان يهتبل أية فرصة تلوح له ليعبّر عن أحاسيسه الوطنية الصادقة ومشاعره الدينية، حاثاً أبناء وطنه على الصمود ومقارعة العدو الغاصب، وكانت قضية وطنه المهدَّد بالاستلاب قد ملكت عليه لبَّه، وسيطرت على كيانه فشغل بها، وكانت هاجسه الذي أرَّقه طوال حياته، وصدر إسعاف في كل ما كتب وأملى عن وعي عميق وإحاطة شاملة وبصيرة نافذة وقدرة تحليلية فائقة على التنبؤ والاستنتاج، واستكناه آفاق الصراع ونتائجه. وهي قدرة لا يملكها سوى الموهوبين والقادة الملهمين.

وكان إسعاف أحد أولئك القادة، فحذَّر وأنذر ونبه أبناء وطنه إلى المخاطر التي تتهددهم، مع أن هذه المخاطر كانت في بواكيرها، ولم تتضح معالمها بعد، فقد نشرت له مجلة (النفائس) عام 1910م قصيدة في سبعة وعشرين (27) بيتاً بعنوان: (فلسطين والاستعمار الأجنبي) تنبأ فيها بمصير البلاد، مع أن الحكم كان ما يزال بيد العثمانيين لا الإنجليز، وقصيدته خليقة بالتأمل من هذا الجانب، ولاسيما قوله فيها:

إنَّ الاستعمارَ قد جازَ المدى	دونَ أن يعدوهُ عن سيرٍ عِداءْ
إنَّ هذا الداءَ قد أمسى عَياء	فتلافوهُ سريعاً بالدواءْ
فاعلموا يا قومُ إن لم تعلموا	أنَّ عُقباكم هلاكٌ وفناءْ
واهجُدوا بالله من رقدتِكمْ	وأرفعوا عن أعينِكُم هذا الغِشاءْ (17)

وأمِل النشاشيبي حين عينته سلطات الانتداب مفتشاً عاماً للغة العربية أن ينجح في مهمة تنظيم المدارس، وفي إصلاح نظام التعليم فيها، وترقية تدريس اللغة العربية وآدابها بوضع منهاج قوي يؤدي هذا الغرض، وقد حاول جاهداً أن ينهض بهذه المهمة الجليلة غير أن عمله في المجال التربوي كان محكوماً بعاملين حدَّا من طموحاته، ودفعاه في نهاية المطاف إلى الاستقالة من عمله، وأول هذين العاملين: أن التعليم في فلسطين أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كان لا يساعد على النهضة الثقافية والعلمية، لأن البلاد كانت تغرق في ظلمات الجهل والتخلف العلمي والثقافي، وكان الناس بعيدين عن مظاهر التطور التقني، والمدنية وعلومها الحديثة التي كانت تعج بها أوروبا في ذلك الوقت (18)، وكان الشرق يغطُّ في نوم عميق، وتحيط به أسوار العزلة التي لا تساعد على يقظته من سباته ونهوضه من كبْوتِه، واستمرت هذه الأوضاع المزرية في عهد الانتداب البريطاني، على الرغم من بعض المحاولات التجميلية اليسيرة التي قامت بها سلطات الانتداب لتحسين أوضاع التعليم والنهوض بها.

وثاني هذين العاملين السياسة التعليمية الجائرة التي اتبعتها دائرة المعارف البريطانية في حقل التعليم العربي، ففي حين أعطت المجلس الملّي اليهودي صلاحيات واسعة وحرية كاملة في البرامج التي يعتمدها لتعليم المهاجرين والمستوطنين اليهود، فإنها وضعت سلسلة من القيود والضوابط التي تحد من حرية التعليم في القطاع العربي، ولهذا كانت محاولات النشاشيبي الإبداعية والإصلاحية في المجال التربوي، تصطدم غالباً بالنظم التي صُممِّت أساساً لمصلحة السياسة التي تضمرها حكومة الانتداب، كما

أن الخلافات الكبيرة الناشئة في إدارة المعارف كانت تصدر عن أمزجة متناقضة، جعلت الانشغال بهذه الخلافات أمراً لا مفرَّ منه، ولو على حساب التربية والمبادئ التربوية، ووضعها موضع التنفيذ في الحياة المدرسية [19] .

ولم يمنع ذلك كله النشاشيبي من تحقيق بعض ما كان يصبو إليه، فقد أسعفه تضلُّعه بالعربية، وإيمانه العميق بأن التربية الجيّدة تكمن في الأدب الجيّد، وأن المنهج النصي، بمعنى اعتماد النص والتعاطي معه من طرف المعلم عرْضاً وتعليقاً وفهماً ومنطلقاً لتدريس سائر فروع اللغة من أدب ونقد وبلاغة، يشكل مدخلاً رئيساً لتعليم النشء وتثقيفه، ساعده ذلك كله في اختيار مجموعتين ضمنهما أجود ما وقعت عليه يده من النصوص الشعرية والنثرية، وأطلق على المجموعة الأولى اسم: (مجموعة النشاشيبي) ، وخصصها لطلبة المستوى الثانوي، وأطلق على الثانية اسم: (البستان) ، وخصصها لطلبة المستوى الابتدائي، وتجلَّى في المجموعتين ثقافته العربية الأصيلة وذوقه الرفيع، ورهافة حسه وتوجهه القومي والوطني.

ومن بين الأهداف التي سعى النشاشيبي لتحقيقها من اختياره نصوص هاتين المجموعتين: إبراز محاسن اللغة العربية وآدابها، وتألق صورها الجليلة المشرقة، لتراها الأجيال العربية، وتنهل من معينها العذب، وتتأدب بأدبها الرفيع، ومعانيها السامية، وتتغذى بثمارها الطيبة الحلوة، وتتأثر ببلاغتها وقوة بيانها. يقول النشاشيبي في فاتحة المجموعة الأولى: «جمعت هذه الأقوال ليرويها نشء العرب فيهتدوا بهداها »[20] ، وكذلك كان من أهدافه تربية الروح القومية في نفوس التلاميذ، وتمرين ألسنتهم وأقلامهم على البيان الفصيح، وغرس الأخلاق والقيم العليا في نفوسهم [21] .

ولم تكن جهود النشاشيبي التربوية قاصرة على وطنه فلسطين فحسب، بل امتدت لتشمل العديد من الأقطار العربية الشقيقة، فحين عرضت وزارة التربية والتعليم المصرية مقترحاً لتيسير النحو العربي، لم يسعْ النشاشيبي إلا أن يدلي بدلوه في هذه المسألة التي دار حولها جدل واسع في أوساط المثقفين والمربين المصريين، وقد عارض النشاشيبي ما ورد في مقترح الوزارة، ونشر ردوده على صفحات مجلة الرسالة القاهرية، وأكد فيها أن المشكلة إنما تكمن في المعلم والكتاب، وليس في اللغة وبنيتها: نحواً وصرفاً أو بلاغة. يقول: «العربية هي كسائر اللغات، وليست بأصعبّهن، وإنَّ نحوها – وإن لطفت دقائقه وجلت حقائقه – إلا كنحوهنَّ، وليست المشكلة في صعوبة اللغة أو سهولتها، ولا في قاعدتها، وإنما هي في المعلم والكتاب. فهما اللذان يسهلان ويصعبان، وهما اللذان يهديان ويضلان، وهما اللذان يحببان إلى الفتى أو يُكرهان، فالمعضلة كل المعضلة هي في المعلم وعلمه وتعليمه، وكتاب كل صف من الصفوف وتبويبه وتبيينه» [22] .

ويضيف النشاشيبي محذراً من المسّ بقواعد اللغة أو تغييرها، فيقول: «ومن ظن أو أيقن أن تقريب العربية أو تسهيلها هو في تهديم قواعد فيها، فهو مهوَّس يهذي، أو موسوس يلغو، وليست اللغة العربية ملك كاتب أو كويتب، أو أديب أو أُديِّب، أو عالم أو عويلم حتى يتصرف فيها تصرف المستملكين. كلا ثم كلا. إنها تراث قرون، وملك أمم، فأين يذهب بكم يا لاعبون. »(23) .

ولا يعنى هذا – في رأيه– أن اللغة تبقى على الدهر جامدة دون تغيير أو تطوير، فاللغات في المشارق والمغارب «إنما يُقدَّم فيها ويُؤَخَّر، ويُلغى ويُعلَّق، ويَنقص أو يزيد، ويحيا أو يبيد، فإنه لا يفعل ذلك إلا الاحتياج الطبيعي، أو الانتخاب الطبيعي، وإلا الدهر، لا اللاعب العابث ولا الجاهل الغَّر، ولقد كان التبديل الطبيعي في هذا اللسان في كل عصر، ولو استمرت تلك المدنية، ولولا التتر والصليبيون المخربون في الشرق، والفرنج الجاهلون المدمرون في الأندلس في المغرب، لرأت الدنيا من ارتقاء العربية كل عجيبة »(24) .

وكتب النشاشيبي، لتأكيد فكرته حول دور الانتخاب الطبيعي في تطوير اللغات وصقلها وتهذيبها وإثرائها، والتي استمدها على ما يبدو من نظرية (دارون) في النشوء والارتقاء، سلسلة مقالات بعنوان «اللغة ماشية مع الزمن»، ركز فيها على فكرة التوليد والاشتقاق والتعريب التي تسعف أصحاب اللغة بتلبية احتياجاتهم في إيجاد الألفاظ المعبرة عن حضارتهم وما يستجد من علوم وفنون، وهو ما أطلق عليه اسم الانتخاب الصناعي أو الصنعي حسب تعبيره، وهو بذلك يفند أقاويل من ذهبوا بعدم قدرة اللغة على الوفاء بمتطلبات العصر، ومن دعوا إلى استبدالها باللغة العامية، أو استبدال حروفها بالحروف اللاتينية، أو استبدالها بالفرعونية في القطر المصري، وهي دعوات صادرة– حسب رأي النشاشيبي– عن دوائر استعمارية جعلت على رأس أهدافها تقويض الأمة بتقويض لغتها، ولاسيما في المجال التعليمي بمستوياته المختلفة. وقد كرّس النشاشيبي جُلَّ عنايته واهتمامه لدحض مثل هذه المفتريات والدعوات الهدَّامة، وتفنيدها وتعرية أهدافها، وبيان مخاطرها، فنبه في غير موضع من كتاباته على أن «اللغة العربية هي الأمة والأمة هي اللغة، وضعف الأولى ضعف الثانية، وهلاك الثانية هلاك الأولى، وكل قبيل حريص جد حريص على أن يستمر كونُه على ألا يبيد، فهو مستمسك بلغته للاحتفاظ بكينونته، واللغة ميراث أورثه الآباء الابناء، وأحزمُ الورَّاث صائنٌ ما ورث، وأسفههم في الدنيا مضيع» (25) .

ومن هنا جاءت دعوته إلى ترقية التدريس باللغة العربية، والوفاء بحقها في التجديد، والأمران منوطان– كما ذكر في خطبة له بعنوان: (العربية في المدرسة) ، ألقاها في مؤتمر رؤساء المدارس في معارف فلسطين في الثاني من نيسان سنة 1927م– بالمدرس

والكتاب: «مدرس يتقن الفصحى، كما تجلَّت في عصور ازدهارها، ويستخدمها في مواقفه التعليمية كافة، وكتاب يتيح للطلبة الاطلاع على كنوز التراث وفرائده وذخائره النفيسة، وبذلك تستعيد العربية سابق عزها ومجدها، وتؤدي رسالتها في نهضة الأمة ورقيها، على الرغم من كل حملات الطعن والتشويه والتشكيك التي تتعرض لها من أعدائها والمناوئين لها من مستعمرين ومتفرنجين منكرين لتاريخهم وتراثهم العربي والإسلامي» (26) .

إسعاف ومشكلات الحضارة:

كتب الأستاذ عجاج نويهض ذات يوم في صحيفته التي كانت تصدر في القدس عنواناً عريضاً يتعلق بسفر المندوب السامي البريطاني، ومغادرته القدس إلى بريطانيا، وكان العنوان بالصيغة الآتية: (مندوبنا إلى لندن) ، فاتصل به إسعاف على الفور، وكانت تربطه به صداقة متينة، وقال له مستنكراً: أستاذ عجاج... مرحباً. هل تقول مندوبنا؟؟ ... نا؟ ... نا؟ ... نا؟ ..... – نو... نو... No ، وأغلق الهاتف مغضباً (27) .

والخبر على بساطته لا يخلو من دلالات تكشف لنا بعض الملامح من شخصية إسعاف. فالرجل – كما يبدو– لم يعزل نفسه عن قضايا الوطن وهموم الأمة، ولم يقف منها موقف المحايد أو اللامبالي، بل عاشها وتفاعل معها، بغض النظر عن حجمها أو مبلغ تأثيرها.

ومضمون الخبر يثير لدى القارئ العديد من التساؤلات والاستفسارات، فهل ينسحب موقفه الرافض للاحتلال البريطاني الذي أوحت به عباراته على مجمل مواقفه من الحضارة الغربية والتمدن الغربي؟ وهل تقتضي تهمة (المحافظة) التي يلصقها به خصومه أن يقف من هذه الحضارة موقف الطاعن المعادي، أو على الأقل موقف المتوجس الحذر؟ .

وكمدخل للإجابة عن هذين السؤالين، أشير إلى عبارة وردت في كتاب: (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) لخير الدين التونسي يقول فيها: "إن التمدن الأوروبي تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا إذا استأصلته قوة تيارة المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار، إلا إذا حذوا حذوه، وجروا مجراه في التنظيمات الدنيويَّة فيمكن نجاتهم من الغرق" (28) .

بهذه العبارة يضعنا خير الدين التونسي وجهاً لوجه أمام إشكالية التحدي الذي واجهته أمتنا في النصف الأخير من القرن الماضي، حين أصبح الاجتياح الأوروبي حقيقة تمس الواقع، وتبعث على الجدل في مختلف الأصعدة (29) . فالتمدن الدي رافق هذا الاجتياح، إنما هو قوة متنامية مطردة، اكتسحت أمامها كل شيء حتى كياننا الإنساني ذاته، وشكلت بنموها وأساليبها وتقنيتها وعدوانيتها أيضاً تحدياً خطراً ليس علينا الآن فقط، ولكن على

ماضينا ومستقبلنا أيضاً، ولئن دل ذلك على شيء، فعلى أن المواقف في مواجهة العصر الحديث لم تتحسم بعد في صورة نهائية، وما زال الفكر الإسلامي يعيش أزمة التكيف مع العالم الحديث والتعامل معه، وبخاصة بعد الاختراق الداخلي من قبل النمط الحضاري الغربي في كثير من مجالات الحياة وأنماط المعيشة (30) .

وقد تفاعل النشاشيبي بفضل منهجه العلمي العقلاني مع مشكلة التحدي هذه، فإذا عين له في مقتبل الشباب على كتاب يقرأه في تعليمه المدرسي، وعين له أخرى على ركود المجتمع الرازح تحت وطأة الاستعمار ووسائله المدمرة.

وتجذب هذه الإشكالية النشاشيبي إلى حلبتها، فإذا هو يضيف إلى جانب اهتماماته الأدبية واللغوية مجالاً فكرياً خصباً وأصيلاً بحث من خلاله عن سبل فعالة لتنتظم في إطارها الوسائل والإمكانات الكفيلة برقي العالم الإسلامي ونهوضه من كبوته، بعد أن تسوّدته الأمم، وتداعت عليه كما تداعى الأكلة على قصعتها.

ويصح القول إن مواقف النشاشيبي وآراءه في هذه المرحلة عكست بصدق الأجواء النفسية والاجتماعية التي كان المثقفون في فترة العشرينيات والثلاثينيات، وما بعدها يتحركون في إطارها، وبخاصة بعد أن بلغت الحضارة الحالية درجة من العموم لم تبلغها أية حضارة من قبل، حتى إنها لم تعد في نظر الكثيرين ملكاً للغرب فحسب، وإنما هي إرث مشترك بين شعوب العالم قاطبة (31) .

ومن هذا المنطلق يرفض النشاشيبي نسبة الحضارة الغربية إلى الغرب، مؤكداً أن هذه الحضارة إنما هي تراث إنساني اشتركت فيه جميع العقول، وشارك فيه المسلمون بالذات مشاركة كبيرة. فالعالم الغربي – كما قال – مدين بما يملكه الآن من تقدم في مجالات العلوم والفنون وأساليب الحياة الاجتماعية والمعيشة إلى الحضارة العربية الإسلامية، ويعبر عن هذه الحقيقة بقوله:» محمد والعرب والمسلمون هم هداة العالمين، وإن نُوّبَ الغربيون اليوم في العلم والمدنيَّة، فأنطقوا الجماد وبهروا وسحروا بما ابتدعوا أعين الناظرين وسمع السامعين، فالفضل للمتقدمين والسابقين الأولين، ولولا المسلمون ما علم الجاهلون، فلا يتيهُنَّ على مرشديهم متغطرسين» (32) . ويقرر بعد ذلك بحزم: «لولا محمد والعرب والمسلمون ما تقدم في الدهر الغربيون» (33) . وليس فيما قاله إسعاف غرابة لسبب واحد هو أن التلاقح الحضاري، أو ما يمكن تسميته بالسيولة الحضارية أقوى من الحواجز الطبيعية والفوارق السياسية والاقتصادية، فضلاً عن أنه عامل ضروري له أهمية كبيرة في حركة التاريخ وتطور الحضارة (34) .

وهكذا أصبح الاقتراض من الغرب عند النشاشيبي وغيره من الإصلاحيين مجرد

استرداد لما أعطي إليه سابقاً، وقد فتح هذا التسويغ إلى حد ما طريق الأمل بالمستقبل، فكما أن أوروبا استطاعت أن تأخذ العلوم من المسلمين، وتؤسس عليها حضارتها وتمدنها، فإن بإمكاننا بل الأجدر بنا أن نعود إلى ما كان لنا ونستعيده منها، ولن يتم ذلك إلا إذا عدنا إلى ديننا وتسلّحنا بالعلم الذي انبعث به أسلافنا.

ويكاد غالبية المفكرين العرب المسلمين منذ بداية عصر النهضة يتفقون حول هذه النقطة التي أصبحت محور الأيدولوجية الإصلاحية الإسلامية فيما بعد.

وعلى رأي أحد الباحثين المحدثين: إن هذه المقولة قد حققت فائدتين على جانب كبير من الأهمية: فمن ناحية بررت الاستعارة من الغرب، ومنحتها قسطاً كبيراً من المشروعية، ومن ناحية ثانية لطّفت الشعور بالنقص الذي أحسّ به المسلمون تجاه تفوق أوروبا في الثقافة والقوة (35) .

وأيا ما كان الأمر، فإن النشاشيبي كان مقتنعاً – كما يبدو – من خلال مؤلفاته وأقواله بأهمية الاستعارة والاسترشاد بكل تيارات الفكر الإنساني، بل كان متحمساً لها باعتبارها إحدى الوسائل الأساسية للنهوض بالأمة العربية، وتجديد شباب الإسلام، ووجد النشاشيبي مسوغاً مشروعاً لهذه الاستعارة في تجربة تاريخية سابقة، حين أقبل رواد الحضارة العربية على كنوز الإغريق، وأفادوا منها وزادوا عليها في تلاقح فريد بين الحضارات البشرية، يقول النشاشيبي في رسالة له بعنوان: (قلب عربي وعقل أوروبي) نشرها عام 1922م: «فالعربية ربة مدنية، فإنها لمّا ظعنت عن جزيرتها لاقت في طريقها المدنية الإغريقية، فما صعرت عنها خدها، ولا تعبّست، وما أدلت بفضيلتها (وإنها لذات فضيلة) ، واستيقنت بأنها أعلى منها، فأطالت الجثوم بين يديها وحدثت عنها» (36) .

وينتقل النشاشيبي بعد ذلك إلى بيان مآثر المدينة الغربية ويعددها بالتفصيل، وكأنه يتمنى أن يحذو أبناء العروبة حذوها، ويسيرون على هديها، يقول: «والمدينة الغربية ذات تعاجيب، فهناك النظام تصحبه الهيبة، وهناك العلم قد وافقته الحقيقة، وهناك الفن إن رآه الرائي بهت، واقصد باريس ترَ الدنيا، وهناك الجَلَد الجرماني في العمل والبحث والتدقيق، وهناك الابتداع يتبعه ابتداع يليه ابتداع، وهناك الوطنية تعلّم جاهلها كيف تكون، وهناك الحرية اشتريت بغالي الثمن، وهناك الاقتصاد وهو عماد ذاك الصرح، وهناك الوجود في سبيل الخير والعلم، وهناك الجامعات النيّرات، وهناك السعي الأمريكي والعصامية، وهناك الخلق السكسوني «(37) .

والمتفحص لما عدَّده النشاشيبي من مآثر المدنية الغربية، لا يخالجه شك في أنه مطلع عن كثب على ما حققته من إنجازات في مختلف مناحي الحياة، وأنه ليس غريباً

عنها بعقله ووجدانه، فهو يتحدث عنها كما لو كان يعيش دهره بين أبنائها، ويفصل فيها القول معجباً بما حققته من خير للبشرية قاطبة، وإعجابه هذا لا يتعارض مع كرهه للإمبرالية الغربية المتمثلة في بريطانيا، فالعلم والحضارة شيء، وما تمارسه السياسة الاستعمارية شيء آخر، فإذا توافر الخير كل الخير في الأولى، فإن الثانية مثال صارخ للشر والعسف والطغيان، ولهذا لم يتردد النشاشيبي في تعرية النزعة الإمبريالية لدى الغربيين، وحثِّ بني قومه على مواجهتها، يقول: «أيها الغربيون، ارجعوا إلى بلادكم مذمومين مدحورين، انقلبوا إلى دياركم خائبين مقهورين، أيها الغربيون علَّمكم نور الدين وصلاح الدين ما لم تكونوا تعلمون، علَّماكم المروءة والوفاء ومكارم الأخلاق والعدل، وأن تكونوا متمدنين مهذبين، لكنكم تلاميذ، ألفيناكم بعد قرون – أرى **الله** بكم – جهالاً أغماراً غير كرام، غير مهذبين» (38) .

وعبَّر إسعاف عن مقته الشديد للاستعمار الغربي، وكراهته له بعدما اتضحت نواياه، وخالفت أفعاله ما أشيع عنه من تسامح وتقدم، وتعلق بالحرية والديموقراطية وحقوق الانسان، وبعدما عمّت شروره وآثامه بلاد العرب والمسلمين، ولا سيما وطنه فلسطين، يقول في خطبته التي ألقاها في ذكرى معركة حطين: «نور الدين، صلاح الدين إن القوم قد عادوا وأعادوها بعد عصور جذعة. اللنبي، غورو، قد أتانا ما قلتما، قد فهمناه، قد عقلناه، إنها لم تنته، إنها لم تنته أيها الغربيون. هذي بلادنا، هذي ديارنا، زايلوا بلادنا، غادروا بلادنا. إنا لكم ولوجوهكم (شاهت وجوهكم لا حياها **الله** وجوهاً) ، ولمدنيتكم الكاذبة المزورة، ولظلمكم وجوركم ولانتقامكم من القالين، من المبغضين، من المنكرين، من الجاحدين، من الكافرين». (39)

ومع إشهار عداوته للنزعة الاستعمارية، فإن إسعاف يقر بأن الغرب موئل للعلم والحضارة، وأنه ارتقى القمة بسلوكه هذا السبيل، فلا مناص لنا من السير على هديه، والإفادة مما أنجزه، ولهذا نراه يدعو أهله وبني قومه للإقبال على العلم الإفرنجي والحضارة الغربية، كيما لا يَبقوْا لأهل الغرب تابعين مستعبدين، يقول:» إذا لم نستيقظ من هجعتنا، ونعرف مقدارنا، ونتخرج في العلم على زعيمه، ظللنا لأهل الغرب أرقاء عسفاء والجاهل للعلم في كل زمان عبدٌ قن» (40) . فلا مناص لنا إذاً من أن نلج أعتاب هذه الحضارة، ونتفاعل معها، وننهج نهجها، كي نسمو في معارج التقدم والمدنية. يقول: «تلكم مدينة الغرب، فالخير كل الخير في أن نعرفها، والشر كل الشر في أن نجهلها، لأننا إذا عاديناها وهي السائدة الساطية، استعلتنا، وإذا ما نبذنا عليها حقرتنا، وهي مدنية قد غمرت الكرة الأرضية، فليس ثمة عاصم، وإن آويت إلى المريخ» (41) .

ويندفع النشاشيبي بعد ذلك في مهاجمة من يقفون من المدنية الغربية موقف

الاستنكار أو العداء: «فالعربي الذي يكرّه إلينا هذه المدينة، ويثلبُ علمها ونظامها وفنها، ويسخر من روادها لا يروم وحياتكم أن نحيا في هذا الوجود أو نسود، بل يريد أن نبيد أو أن نعود في الناس مثل العبيد، وهذا عدو، وما تمنى عدو لغيره خيراً »(42) .

ويختمُ النشاشيبي رسالته بحثِّ العربي على الاقتداء بالغربي في علمه وفنه ونظامه واتقانه وإخلاصه لعمله، ثم يقرر في غير ما لبس ولا إبهام: «فإن أتيت يا أخا العرب، فقد أحسنت إلى أمتك واعتزَّت بعد الذلة عربيتك، قد حملت هامتك عقلاً أوروبياً، كما أقلَّ صدرك قلباً عربياً فانتعتَّ بالنعتين، واستبددت بالمنقبتين، بل هما حصنان حصينان اعتصمت بهما فنجوت، وغادرت خزيان ينظر، ولو لم تكن لولاهما بالناجي» (43) .

وإذا كانت الاستعارة من الغرب والإفادة من علومه سائغة ومشروعة في رأي النشاشيبي، فإن سبيلها وعر، ودربها شائك، فالنهضة لا تأتي هبة أو منَّة من أحد، ولا تتيح لأحد أن يفتح مغاليقها أو يملك زمامها، ويستحوذ على أعنتها ما دام قابعاً لا يكد ولا يسعى، يقول النشاشيبي موازناً بين الشعب الألماني والشعب العثماني: «إن الألمان لم يبلغوا ما بلغوه وهم هاجدون نائمون ومنغمسون في النعيم مترفون، لا والله ما ظفروا بذلك كذلك، ولكن بحوادث وكوارث شابت لها الأطفال، ووقائع يوم الحروب تقلقلت منها الجبال، ولم تتزلزل الأبطال من الرجال، ومدارس بنوها على أساس من الحقائق متين، وعلوم برزت على علوم المتقدمين وتضافر واتحاد وكدح ودأب وجِدٌّ، لا حظٌّ من الدهر وجد (44) .

وهكذا يبدو النشاشيبي من دعاة العلم، فالعصر حسب رأيه عصر العلم: «فكل من لم يهتد به ضلَّ، وكل من لم ينتهج نهجه زلَّ، وكل من رجا النور في هذه الحياة بغيره خاب رجاؤه، وخسرت أمنيته ولم يربح» (45) .

والعلم الحق- في رأي النشاشيبي، كما يجسده الواقع، وتنطق به الحقيقة- «لن يلقاه في هذا العصر ناشده، ولن يجده رائده إلا في الإقليم الإفرنجي، فإن أهل هذا الإقليم قد هجروا الكرى منذ قرون والمشارقة هاجدون» (46) . ويضيف:» وما يقلقل من مكانة العربي، ويُضحك منه خصيمه وخليله، إلا أن يجد المنهل العذب، وهو ملتهب الكبد فلا يَرِد، ويتنور مقتبس الأنوار، وقد دجا واحلولك، فلا يقتبس، فهذا الذي يشينه ولا يزينه، ويسخط الإنسانية ولا يرضيها، فاطلب العلم يا فتى ولو في الصين، ونقب عن الحكمة في كل مكان، وتلقفها من كل إنسان، والعق العسل، ولا تسل عن نحله» (47) .

ربما توحي هذه الدعوة وما يشبهها أن صاحبها قريب من العلمانيين ودعاة التغريب، وليس كما نعته معاصروه بأنه من المحافظين التقليديين، ولكن الأمر في الحقيقة خلاف ذلك، فالرجل كما اتضح من مجمل مواقفه وآرائه ليس علمانياً تغريبياً، كما أنه ليس

موقف المفكر التقليدي أو السلفي المنغلق، الذي تجمد على النصوص، وفقد إمكانية الحوار وإمكانية الأخذ والعطاء، بل هو موقف يرتكز في أساسه ومبناه على قاعدتين رئيسيتين: المحافظة ثم التجديد.

فإذا كانت مواقف المثقفين تجاه المدنية الغربية تتراوح بين من يدعو الى التجديد الحر المطلق من كل قيد، ولو كان على حساب الثابت من القيم والمبادىء، وبين من يدعو إلى الحذر، ويعتمد الرفض المطلق لكل جديد ومستحدث أسلوباً ومنهجاً، فإن النشاشيبي يرفض هذه الثنائية، وهذا الخيار بين طريقين لا ثالث لهما، ويؤكد أن هناك طريقاً يجمع بين أحسن ما في الطريقين من جوانب الإبداع: الاعتماد أولاً على التراث، ثم الإفادة بعد ذلك من ثقافة العصر.

ولكن ربط الحاضر بالماضي يتطلب في رأي النشاشيبي بحثاً واستقصاء، وعقلاً كاشفاً، وملكة صافية، وإيماناً راسخاً، ووصل الحاضر بالمستقبل يقتضي عزيمةً صادقة وإقداماً ماضياً وثورة جريئة، وهنا موطن التحدي أمام المسلم المؤمن بدينه الحريص على دنياه.

خاتمة:

وبعد، فقد يكون صحيحاً أن النشاشيبي لم يقدم تصوراً نظرياً متكاملاً لعملية التجديد، ومواجهة الفكر الغربي الوافد، ولكن النتيجة الحقيقية أنه استطاع بموقفه الذي عرضته في الصفحات القليلة السابقة أن يغلق الباب بوجه محاولات نقد العقيدة، وأوجد في الوقت نفسه نوعاً من الاطمئنان النفسي خفف من حدة الشعور بالنقص تجاه الغرب، وبذلك استطاع أن يمنح الفكر العربي الإسلامي نظرة في عمق التجربة الحضارية، تقيه عثرات التقليد والتقوقع في معطيات الحضارة الغربية، ونحن نرى في كتبه ومؤلفاته قيماً فكرية أصيلة، تفتح أمامنا آفاقاً فاعلة في حل بعض مشكلات الإنسان العربي المعاصر التي هي في جوهرها حضارية متشعبة الجذور والأبعاد.

الهوامش:

1. رحَّب إسعاف مثله مثل كثير من الأدباء والشعراء في فلسطين وسواها من الأقطار العربية بصدور الدستور، وأمل فيه خيراً، يقول من قصيدة له مشيداً بالنصر الذي حققته الدولة العثمانية على اليونان:

أخطري اليوم في الربوع اختيالا	**لا تخافي من العدوِّ اغتيالا**
لا تخافي من كيده لا تخافي	**إن كيدَ العدوِّ ولَّى وزالا**
أيها الشرقُ طالَ نومُكَ فانهضْ	**للمعالي وصافحِ الأجيالا**
أهجرِ الجهلَ والعمايةَ هجراً	**واعدُ للعلمِ مُرقِلاً إرقالا**

انظر، د. إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، 1987م) ، ص: 66

2. د. ياسر أبو عليان، عصر إسعاف، من كتاب أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، ط1، 1987م) ، ص: 5 – 6.
3. د. تيسير الناشف، مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين، (الناصرة: منشورات الطلائع، ط3، 1999م) ، ص 12 – 13.
4. محمد إسعاف النشاشيبي، كلمة في اللغة العربية، (القدس: مطبعة دير الروم الارثوذوكس، ط 2، 1925م) ، ص: 57.
5. المصدر نفسه والصفحة نفسها.
6. أ. د محمد عيسى صالحية، محمد إسعاف النشاشيبي، من كتاب دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس، (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والنشر، 2010م) ، ص: 81.
7. انظر، د. إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي) ، ص: 56.
8. محمد إسعاف النشاشيبي، الفيلسوف أمين الريحاني: قولان له في البلاغة، مجلة الرسالة، (مجلد 13، عدد، 639، أول أكتوبر 1945م) ، ص: 1054 نقلاً عن، د. اسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 16.
9. النشاشيبي، اللغة العربية والأستاذ الريحاني، (دمشق: مجلة الميزان الدمشقية، رمضان، 1344هـ/ 1925م) ، ص: 33.
10. المصدر نفسه، ص: 33، 34.
11. نفسه، ص: 34.

12. أنظر أ. د. عبد الرحمن ياغي، أكتب عن رواد النهضة في فلسطين، (عمان: أمانة عمان الكبرى، 2005م) ، ص: 234.
13. د. ابراهيم العلم، مدرسة اسعاف النشاشيبي في اللغة والأدب، مجلة آفاق، (رام الله: أكاديمية المستقبل للتفكير الابداعي، العدد الثالث، 1999م) ، ص: 100.
14. نفسه والصفحة نفسها.
15. النشاشيبي، كلمة في اللغة العربية، ص: 95.
16. اسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 41 – 42.
17. النفائس العصرية، السنة الثانية، المجلد الثاني، 1911م، ص: 576، نقلاً عن، د. إسحاق موسى الحسيني، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 64.
18. أ. د ياسر الملاح، إسعاف مربياً، من كتاب أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 71.
19. المرجع نفسه، ص: 85.
20. محمد إسعاف النشاشيبي، مجموعة النشاشيبي، (القاهرة: المكتبة السلفية، 1341هـ) ، ص: 3.
21. أ. د محمد عيسى صالحية، محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 43.
22. مجلة الرسالة، القاهرة، السنة السادسة، عدد، 283، (5/ 12/ 1938م) ، ص: 1972.
23. مجلة الرسالة، السنة السادسة، عدد، 271، (12/ 9/ 1938م) ، ص: 1494.
24. المرجع نفسه والصفحة نفسها.
25. النشاشيبي، العربية في المدرسة، (القاهرة: مطبعة المعارف، 1928م) ، ص: 42.
26. المصدر نفسه، ص: 44.
27. انظر، كمال الريماوي، حياة محمد إسعاف النشاشيبي، من كتاب أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، ص: 37.
28. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق، د. المنّصف الشنوفي، (تونس: الدار التونسية للطباعة والنشر، 1972م) ، ص: 50.
29. هذا الوضع ليس قاصراً على المجتمع العربي، بل واجهته أيضا كل المجتمعات التقليدية في مراحل تحديثها الأولى. انظر على سبيل المثال: الدكتور علي هلال، التجديد في الفكر السياسي المصري الحديث، (القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإسلامية، 1975م) ، ص: 31 – 50، الدكتور اسحاق موسى الحسيني، أزمة الفكر العربي (بيروت: دار

بيروت، 1954م) ، ص: 6 – 46.

30.انظر على سبيل الموازنة، أ. د حسن السلوادي، الدكتور إسحاق موسى الحسيني بين الوفاء والذكرى، (الطيبة، مركز إحياء التراث العربي، 1991م) ، ص: 212.

31.المرجع نفسه، 214.

32.محمد إسعاف النشاشيبي، مقام ابراهيم، (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1354هـ) ، ص: 23 – 24.

33.المصدر نفسه، ص: 24.

34.انظر محمد علي مرحبا، أصالة الفكر العربي، (بيروت: منشورات عويدات، 1982م) ، ص: 156.

35.الدكتور هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، (بيروت: دار النهار، 1978م) ، ص: 35.

36.محمد إسعاف، قلب عربي وعقل أوروبي، (القدس: مطبعة بيت المقدس 1342هـ 1924م) ، ص: 3 – 4.

37.المصدر نفسه، ص 13.

38.محمد إسعاف النشاشيبي، البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي، (القدس: مطبعة بيت القدس، 1932م) ، ص: 109 وما بعدها.

39.المصدر نفسه، ص: 112.

40.محمد إسعاف النشاشيبي، كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه، (القدس: مطبعة دير الروم الأرثدوكس 1340 هـ) ، ص: 13 – 14.

41.محمد إسعاف النشاشيبي، قلب عربي وعقل أوروبي، (القدس: مطبعة بيت القدس 1342هـ) ، ص: 5.

42.المصدر نفسه، ص: 13.

43.المصدر نفسه والصفحة نفسها.

44.انظر، أ. د. عبد الرحمن ياغي، أكتب عن رواد النهضة في فلسطين (عمان: أمانة عمان الكبرى، 2005م) ، ص: 245.

45.المرجع نفسه، ص: 216.

46.محمد إسعاف النشاشيبي، كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه، ص: 14.

47.المصدر نفسه، ص: 18.

المصادر والمراجع:

أولاً- الكتب:

1. التونسي، خير الدين، أقوم المسالك في معرفة الممالك، تحقيق، د. منصف الشنوفي، (تونس: الدار التونسية للطباعة والنشر، 1972م) .
2. الحسيني، أ. د. إسحاق موسى، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، (القدس: مركز الأبحاث الاسلامية، 1987) .
3. الحسيني، أ. د. إسحاق موسى، أزمة الفكر العربي، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1954م) .
4. السلوادي، أ. د. حسن عبد الرحمن، الدكتور إسحاق موسى الحسيني بين الوفاء والذكرى، (الطيبة: مركز إحياء التراث العربي، 1991م) .
5. شرابي، د. هشام المثقفون العرب والغرب، (بيروت: دار النهار، 1978م) .
6. صالحية، أ. د محمد عيسى، وآخرون، دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس، تحرير، د. محسن محمد صالح، (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والنشر، 2010م)
7. العلم، د. إبراهيم، مدرسة إسعاف النشاشيبي في اللغة والأدب، مجلة آفاق، (رام الله: أكاديمية المستقبل للتفكير الإبداعي، 1999م) .
8. أبو عليان، وآخرون د. ياسر، أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، 1987م) .
9. مرحبا، محمد علي، أصالة الفكر العربي، (بيروت: منشورات عويدات، 1982م) .
10. الناشف، تيسير، مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين، (الناصرة: منشورات الطلائع، ط3، 1999م) .
11. النشاشيبي، محمد إسعاف، البطل الخالد صلاح الدين، والشاعر الخالد أحمد شوقي، (القدس: مطبعة بيت القدس، 1932م) .
12. النشاشيبي، محمد إسعاف، العربية في المدرسة، (القاهرة: مطبعة المعارف، 1928م) .
13. النشاشيبي، محمد إسعاف، الفيلسوف أمين الريحاني: قولان له في البلاغة، مجلة الرسالة، (مجلد 13، عدد 639، أول أكتوبر، 1945 م) .
14. النشاشيبي، قلب عربي وعقل أوروبي، (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1342 هـ) .

15.النشاشيبي، كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه، (القدس: مطبعة دير الروم الأرثوذكس، 1340 هـ) .

16.النشاشيبي، اللغة العربية والأستاذ الريحاني، (دمشق: مجلة الميزان، رمضان 1342 هـ/ 1925م) .

17.النشاشيبي، محمد إسعاف، كلمة في اللغة العربية، (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1925 م) .

18. النشاشيبي، مجموعة النشاشيبي، (القاهرة: المكتبة السلفية، 1341 هـ) .

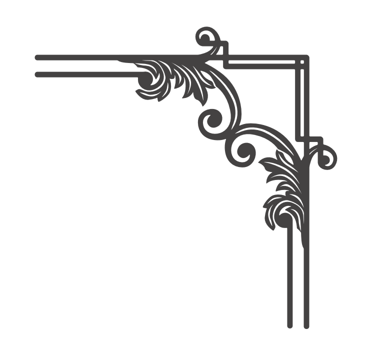
19.النشاشيبي، مقام إبراهيم، (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1354 هـ) .

20.هلال، د. علي، التجديد في الفكر السياسي المصري الحديث، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات الاسلامية، 1975م) .

21.ياغي، أ. د. عبد الرحمن، أكتب عن رواد النهضة في فلسطين، (عمان: أمانة عمان الكبرى، 2005 م) .

ثانياً- الدوريات:

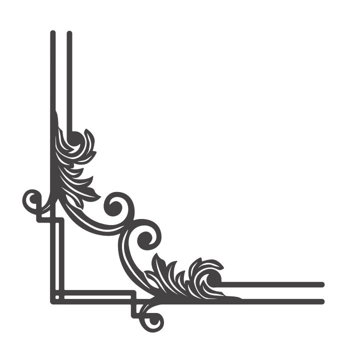
1. مجلة آفاق، (رام الله: أكاديمية المستقبل للتفكير الإبداعي، 1999م) .
2. مجلة الرسالة، (القاهرة: مجلد 13، عدد 639 أول أكتوبر 1945م) .
3. مجلة الميزان الدمشقية، (دمشق، رمضان 1342 هـ/ 1925م) .
4. مجلة النفائس العصرية، السنة الثانية، المجلد الثاني، 1911م.



الفصل الخامس

مختارات من نثر النشاشيبي

- مقدمة.
- التصاوير والتماثيل في الحضارة الإسلامية.
- الشرق والغرب.
- شوقي توارد الخواطر.
- التزوُّج بالغربيَّات.
- أقوال في الزكاة مهمة لأئمة.



مقدمة:

ربما توحي كلمة أديب العربية أن النشاشيبي حصر نتاجه الفكري والإبداعي في مجال اللغة والأدب بفنونه المختلفة، والحقيقة أن جوانب العطاء في شخصية إسعاف ثرية ومتعددة، فقد خاض قلمه في كثير من المجالات الفكرية والأدبية والتربوية والفقهية، كما اتضح من تناولنا لآثاره وملامح شخصيته.

وقد حرصت في هذه الفقرة على تقديم نماذج من نثر النشاشيبي ليطلع القارىء على مناحي التفكير ومجالات الاهتمام لدى هذا الأديب المبدع. **وكان وراء اختياري لهذه النماذج دون غيرها دوافع عديدة أجملها في النقاط الثلاث الآتية:**

1. التدليل على أن النشاشيبي، وإن كان أثرياً في طريقة تعبيره وصياغة ألفاظه وجمله، وإنه وقف عند القدماء لا يتعداهم في أسلوب الكتابة والتعبير، كان- كما المحنا سابقًا- يجمع بين الأصالة والتجديد، وربما أمكن من هذه الزاوية أن يطلق عليه اسم «الأثري المجدد»: أثري في أسلوبه وطريقة اختياره للكلمة والعبارات، مجدد في تفكيره وتناوله لمشكلات العصر وهموم المجتمع.

2. التدليل على سعة ثقافته ووفرة محصوله من المعارف والفنون الإنسانية قديمها وحديثها، وهو ما تطرقنا إليه في الفصول السالفة، ولكن أحببنا أن يطلع القارىء بنفسه على نماذج تطبيقية دالة على هذا الملمح من شخصية إسعاف.

3. بيان جرأة النشاشيبي واعتداده بنفسه، وثقته بأهمية ما يعرضه من أفكار ومعان، فالقارىء لهذه النماذج ولغيرها، يحس أن النشاشيبي، وهو يكتب عن القدماء ويستشهد بأقوالهم، ويعلق عليها، يشعر قارئه بأنه جزء منهم ومن طبقتهم، وليس غريباً عنهم. وهذا فضلاً عن أنه لا يتحرج من طرق الموضوعات الحساسة والمثيرة للجدل كالرقص والغناء والموسيقى، ومن إبداء رأيه الخاص المدعوم غالباً بالأدلة والبراهين، ربما يختلف بعضهم معه. في طريقة الاستشهاد والتدليل على أحكام الشريعة وأسلوب الاجتهاد في عرض القضايا الفقهية وغيرها، إذ لا يجوز الاستدلال- حسب رأيهم- على صحة هذه القضايا أو خطئها بغير القرآن الكريم والسنة النبوية وما ورد حولها من آراء لأئمة الفقه والتنشريع، ولا حجة في ذلك لأقوال أديب أو مفكر أو مؤرخ، ولا يستدل على صحة الأحكام الفقهية وقضايا التشريع بما ورد عنها في كتب الأغاني خاصة، أوفي كتب الأمالي والطبقات بوجه عام.

بالرغم من ذلك كله فقد أظهر النشاشيبي من خلال هذه الكتابات أن له إسهاماً

مميزاً في كثير من القضايا التي تهم الناس، وأنه لم يعزل نفسه قط عن هموم أبناء شعبه ومشكلاتهم وآمالهم وأحلامهم.

التصاوير والتماثيل في الحضارة الإسلامية

التصوير في الكتب لأستاذ جليل [1]:

التصوير في (الحضارة الإسلامية) – في الحجر والكتاب – كثير، وإذا وجد واستمر بحث النابشين وتنقيب المفتشين ظهرت نفائس مضمرات، وبدت بدائع مكنونات، وعرف الناس من آثار تلك المدينة المحمدية ما لم يكونوا قد عرفوه.

وإن (كتاب الله) لم يذم في آية من آياته تحسيناً ولا تجميلاً، ولم يحرم تصويراً ولا تشكيلاً. وهل الخط أو التسطير إلا تدبيج وتصوير؟ وهل الكتابة أصلها إلا صور؟ وهذه القصور المروانية والعباسية– والقوم حماة الدين وخلفاء المسلمين– فيها الأشكال والتهاويل [2] «من كل شيء يرى فيها تماثيل» [3]

وقد زار مسلم عربي منذ أشهر قصر هشام بن عبد الملك الذي كشفه المنقبون في ناحية أريحا من أعمال فلسطين [4] في السنة الماضية فشاهد صوراً ناتئة لوجوه أناس عرب في بقايا الغرف والجدران

قلتُ يوماً لدارِ قومٍ تفانوا	أين سكَّانك العِزازُ علينا
فأجابتْ: هنا أقاموا قليلاً	ثم ساروا ولستُ أعلمُ أينا

وكان في رفاقته أحد معارفه قال مستعجباً: ما هذا؟ خليفة مسلمين، وإمام دين، وصور وتماثيل!!

فقال المسلم العربي مفاكهاً مازحاً: لم يكن (المحرم) قد نجم ودونت كتبه في أيام هشام.... [5]

وجاء في تاريخ بغداد لابن الخطيب في وصف دار الخلافة: [6] «وفيها أي دار الشجر [7] – في دار الخلافة – شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف، وللشجرة ثمانية عشر غصناً، ولكل غصن منها شاخات كثيرة [8] ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وبعضها ذهب، وهي تتمايل في أوقات، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك، كما تحركُ الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر.

وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً قد ألبسوا الديباج وغيره، وفي أيديهم مطارد (9) على رماح يدورون على خط واحد في (النارود) (10) خببا وتقريبا (11) فيظن أن كل واحد إلى صاحبه قاصد، وفي الجانب الأيسر مثل ذلك. «وذكر ابن أبي الحديد في (شرح النهج) الكبير: «أنه كان على سيف عضد الدولة بن بويه وأبيه ركن الدولة صورة علي (رضي الله عنه) ، وكان على سيف ألب أرسلان وابنه ملكشاه صورته»

وروى صاحب (النفح) عن بدر الدين بن حسن الأربلي المتطبب وَصْفَ تصاوير في حمام رآه في بغداد في (دار الملك شرف الدين هارون بن أمازير الصاحب شمس الدين محمد الجويني) تدهش مبصريها وتعجز واصفيها، وقد يجد الفتيان الشطار والمتفننون من رجال الليل ما يشبهها اليوم في بيوت (باريس) .. وربما لا يجدون. وهي الحضارة، وهو التفنن فيها.... وهذا ما تسهل روايته في وصف الأربلي:

«وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية، وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة. ثم أراني – بمعنى سائس الحمام – نحو عشر خلوات، كل خلوة أحسن من صنع أختها. ثم انتهى بي إلى خلوة عليها باب مقفلٌ بقفل حديد ففتحه، ودخل بي إلى دهليز طويل كله مرخم بالرخام الأبيض الساذج، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة، ورأيت من العجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرآة، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها. ورأيت أرضها مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر، ومُذهبَّة؛ وكلها متخذة من بلور مصبوغ، بعضه أصفر، وبعضه أحمر؛ فأما الأخضر فيقال: إنه حجارة تأتي من الروم، وأما المذهب فزجاج ملبس بالذهب؛ وتلك الصور في غاية الحسن والجمال على هيئات مختلفة في اللون وغيره. وكل محاسن الصور الجميلة مصورة في الحائط.»

وهذا خبر عن مصنف مصور في العلم قد أرصن تأليفه وتصويره أيَّما إرصان، وكأنه آخر ماقيل في أمريكا وأوروبا في توضيح الكتب بالصور، وإني لأرويه مؤيداً ومسانداً المقالة الجديدة المفيدة: (التصوير التوضيحي في المخطوطات الإسلامية) التي أطرفها الناس في (الرسالة) الغراء الأديب المتفنن الدكتور أحمد موسى، والتي زينت لي تصوير هذه السطور:

قال بن أبي أصيبعة في كتابه: (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) في سيرة رشيد الدين بن الصوري (12) : «ولرشيد الدين بن الصوري من الكتب كتاب الأدوية المفردة. وهذا الكتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم، وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة، وذكر أيضا أدوية طلع على معرفتها ومنافعها، لم يذكرها المتقدمون، وكان يستصحب

مصوراً، ومعه الأصباغ والليق [13] على اختلافها وتنوعها، فكان يتوجه رشيد الدين ابن الصوري إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي اختص كل منها بشيء من النبات، فيشاهد النبات ويحققه، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها. ثم إنه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً، وذلك أنه كان يري النبات للمصور أبان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريه إياه وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه إياه وقت ذويه وببسه ويصوره، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر في الكتاب وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه به في الأرض، فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له أبين».

إن التصوير غير الشركي وغير العهري لمباح. وإن التصاوير والتماثيل إنما هي تحاسين وتزايين «قل من حرم زينة **الله**» وإذا كان ذلك الهدى والتذكير والتعليم والتثقف فقل الوجوب.

الشرق والغرب:

الشرق والغرب خصمان ألدَّان. وعدُّوان- كل يجاهر بعدائه وبغضائه صاحبه- شديدان.

وإنهما لم ينفكا منذ الدهر الأقدم يتنازعان رداء السؤدد ويتجاذبان، ويتجاريان في ميدان المجد ويتباريان، وكل يقدح في ألاَّ تخفق فوق قلل الكرة الأرضية إلا رايته. فساد الشرقُ الغربَ حيناً. وعلا الغربُ الشرقَ دهراً. وظاهر الزمن الأول تارة وساند الثاني أخرى.... وتلك الأيام [14] . وللغرب في هذا الوقت الدولة على الشرق. فهو العالي وهو السائد. وهو المورد في شؤون الكون وهو المصدر. وهو ذو الأمر وذو النهي. وهو صاحب القول الفصل في دار ندوة [15] الحكم، وإنما رفع الغرب فوق الشرق درجات علم قد خادنه العمل. وجدٌّ جادٍ قد عادى الخور والكسل. فهذان هذان هما اللذان عبَّدا لأهل مغربِ الشمس طريق عليائهم. وذللا قدامهم كل صعب. وأظفراهم بما أظفراهم به.

وإن العالمَ لحقيق جدَّ حقيق بأن يسود. وإن الساهِرَ المشمِّرَ لخليقٌ كل الخليق بأن ينتهي من مرغَبه في الوجود إلى حيث يريد. وما خيس الشرق من بعد عزته. ولففه في أطمار ذلته. إلا العجز المخيم في واديه. وإلا الجهل الحائق به من جميع نواحيه.

ولقد اعتزم الغرب على أن يقذف بالشرق في هوة دريدية [16] من الاسترقاق والعبودية. فإذا لم يأخذها المشرق المفرط في أمره.

والممرض في حاجته حذره وينبل للكوارث نبالها. ويتذرع لصدم الشر بمثل ذرائع أخيه – وإن الحديد بالحديد يفلح – ويعلم ويدأب ويفرُّ فرار السليم من الأجرب من الجهل الذي آخاه، والجهل مرد من يؤاخيه. ومن العجز الذي صافاه، ومن العجز والتواني نتجت الهلكة. – إذا لم يدرع كل ذلك. فقد تأذن **الله** باضمحلاله. وكتب الكاتب على اللوح [17] حكم زواله. وهيهات هيهات أن يرد عليه التلهف والتحسر إذا ولى الأمر وأدبر.

الغناء:

أنا (و**الله**) لست من علماء (الغناء) ولا من التلامذة فيه؛ ولا أغشى اليوم دوره حتى أسمعه، ولست عراقياً ولست حجازياً.... (فما أشرب ولا أطرب.... [18])

ولو كنت هناك لتمثلت بقول محمود جار **الله** (رحمه **الله**) :

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي	**من وصلِ غانيةٍ وطيبِ عناقِ**
وتمايلي طرباً لحلِّ عويصةٍ	**أشهى وأحْلى منْ مدامة ساقِ** [19]
وصرير أقلامي على أوْراقِها	**أحلى مِنَ الدَّوكاة والعشَّاق**
وألذُّ من نقرِ الفتاةِ لدفِّها	**نقري لألقي الرمْلَ عنْ أوراقي**

وما روايتي قول الحسن البصري في السماع – وقد نظمه ابن عبد ربه في عقده – وسائر ما أرويه في (نقل الأديب) إلا زلفى، تزلف إلى هذه اللغة التي شاء **الله** أن أُكتب في ديوان خدامها ووسيلة لتحبيبها إلى بنيها في هذا الزمان العجيب، فلما أطلعت على الرسالة الغراء (563) على مكتوب الفاضل السيد عبد العزيز الرفاعي في (مكة المكرمة) في الحجاز موطن الغناء القديم ودار محلليه، خفت أن أجيب، فأخطىء ولا أصيب. وأنا في البحث فيما أعرفه المعرفة الصالحة وجلُ القلب، فكيف تكون حالي في الذي أجهله؟ فليس لي – وقد قلت الحق– إلا اتباع هدى **الله**، والعمل بقوله تعالى في (النحل والأنبياء) : ﴿**فاسألوا أهلَ الذِّكر إنْ كنتمْ لا تَعلَمُون**﴾ (النحل: 43) .

رحت إلى ابن عبد ربه وقلت له: أنت رويت قول الحسن في كتابك (العقد) – واسمه اليوم العقد الفريد – فكيف يكون الغناء عوناً على طاعة الرب، وكيف يصل الرجل به رحمه ويؤاسي أخاه؟ فتلقيت منه هذا الكلام:

«إن الصوت الحسن يسري في الجسم، ويجري في العروق، فيصفو له الدم، ويرتاح له القلب، وتنمى له النفس، وتهتز الجوارح، وتخف الحركات... وقد يتوصل بالألحان

إلى الحسان خير الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الرحم، والذب عن الأعراض، والتجاوز عن الذنوب وقد يبكي الرجل بها على خطيئته، ويرقق القلب من قسوته، ويتذكر نعيم الملكوت، ويتمثله في ضميره... وبعد، فهل خلق **الله** شيئاً أوقع بالقلوب. من الصوت الحسن... وهل على الأرض رعديد مستطار لفؤاد يغني بقول جرير:

قل للجبانِ إذا تأخَّرَ سرْجه ... هل أنتَ من شَرَكِ المنيَّة ناجٍ؟!

إلا ثاب إليه روحه، وقوي قلبه؟ أم هل على الأرض بخيل قد تقفعت أطرافه لؤماً، ثم غنى بقول حاتم الطائي:

يَرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحدةً ... إن الجوادَ يرى في مالِه سُبُلا

إلا انبسطت أنامله ورشحت أطرافه؟ أم هل على الأرض غريب نازح الدار بعيد المحل يغني بشعر علي بن الجهم:

يا وحشتا للغريبِ في البلدِ النَّا (م) ... زِح ماذا بنفسهِ صَنَعا

فارق أحبابَهُ فما انتفعوا ... بالعيشِ من بعده ولا انتفعا

إلا انقطعت كبده حنيناً إلى وطنه؟ ...»

وناقشت صاحب (العقد) في التحليل والتحريم فقال لي: عِ هذا الخبر:

«قال إبراهيم بن سعد الزهري قال لي الرشيد: من بالمدينة ممن يحرم الغناء؟

قلت: من أمتعه **الله** بخزيته!

قال: بلغني أن مالك بن أنس يحرمه.

قلت: يا أمير المؤمنين أَوَ لمالك أن يحرم ويحلل؟ **والله** ما كان ذلك لابن عمك محمد (صلى **الله** عليه وسلم) إلا بوحي من ربه، فمن جعل هذا لمالك؟ ولو سمعت مالكاً يحرمه ويدي تناله لأحسنت أدبه...»

وجيت إلى ابن خلدون وفاتحته بما قصدته لأجله، فمما أملاه علي:

«ان النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل معها الصعب... ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت الأصوات متناسبة، لأجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية فيحدق المغنون بالسلطان في موكبه بآلاتهم، ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة»

وقلت في نفسي: «الحكمة ضالة المؤمن «فغدوت إلى أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) واسترأيتهم – طلب رأيهم – في الغناء، فمن جواباتهم:

«من الألحان والنغمات ما يسكن سورة الغضب، ويحل الأحقاد، ويوقع الصلح، ويكسب الألفة والمحبة، فمن ذلك ما يحكى أنه في بعض مجالس الشراب اجتمع رجلان متغاضبان، وكان بينهم ضغن قديم، فلما دار الشرب بينهما ثار الحقد، والتهبت نيران الغضب، وهمَّ كل واحد منهم بقتل صاحبه، فلما أحس الموسيقار بذلك منهما وكان ماهراً في صناعته غير نغمات الأوتار وضرب اللحن الليّن المسكن، وأسمعهما، وداوم حتى سكن سورة الغضب عنهما، وقاما فتعانقا وتصالحا.

ومن الألحان والنغمات ما ينقل النفوس من حال إلى حال ويغيِّر أخلاقها من ضد إلى ضد. وكانوا يستعملون عند الدعاء والتسبيح والقراءة ألحاناً من الموسيقى تسمى المحزن، وهي التي ترقق القلوب [20] إذا سُمِعَتْ، وتبكي العيونَ وَتُكْسِبُ النفوسَ الندامة على سالف الذنوب، وإخلاص السرائر، وإصلاح الضمائر، وكانوا قد استخرجوا لحناً آخر يقال له: «المشجع» كانت تستعمله قادة الجيوش في الحروب، واستخرجوا أيضاً لحناً آخر كانوا يستعملونه في المارستانات يخفف ألم الأسقام عن المريض. واستخرجوا أيضاً لحناً آخر يستعمل عند المصائب والأحزان يعزي النفوس ويسكن الحزن. واستخرجوا لحناً آخر يستعمل عند الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة مثل ما يستعمله الحمالون والبناؤون وأصحاب المراكب يخفف عنهم كدَّ الأبدان وتعب النفوس. ولكل أمةٍ من الناس ألحان ونغمات يستلذُّونها لا يستلذها غيرهم، مثل الديلم والأتراك والأعرابِ والأرمن والزنج والفرس والروم من الأمم المختلفة الألسن والطباع والعادات...»

وقد وجدت عند صاحب كتاب (إنسان العيون) المعروف بالسيرة الحلبية هذه المقالة وهي جديرة بالرواية: «قد شوهد تأثير السماع في الحيوانات غير الناطقة، بل في الأشجار... ومن لم يحركه السماع فهو من المزاج الغليظ الطبع. وعن أبي بشر أن النبي (صلى **الله** عليه وسلم) وأبا بكر مرّا بالحبشة وهم يلعبون ويرقصون فلم ينكر عليهم. وبه استدل أئمتنا على جواز الرقص حيث خلا عن التكسر. وتواترت الآثار بإنشاد الأشعار بين يديه (صلوات **الله** وسلامه عليه) بالأصوات الطيبة مع الدُّف وبغيره. وبذلك استدل أئمتنا جواز الضرب بالدف، ولو فيه جلاجل، لما هو سبب لإظهار السرور» تلكم أقوال جماعة في الغناء، وحيَّا **الله** أخانا الفاضل المكي وحيًّا ربعه، وحيًّا مواطن عظيمة كريمة بهر الدنيا منها ذلك الضياء.

شوقي:

توارد الخواطر [21]:

قصد شاعرنا (أحمد شوقي) ، وهو تلميذ باريس يطلب (علم الفقه) فيها على علمائها ليرجع إلى مصر قاضياً أو مدرها (محاميا) وقد فطره الله شُجاع الجنان، جبان اللسان مثل الرضي الموسوي (محمد بن الطاهر) القائل:

جِنــاني شجــاعٌ إن (شعــرتُ) وإنمــا	**لســاني إن سِيــمَ النشيــدُ جبــانُ**
وفخرُ الفتــى بالقــــولِ لا بنشيدِه	**ويــروي فــلانٌ مــرةً وفــــلانُ**

وفي باريس الفاتنة الساحرة هذه قال شوقي قصيدة (خدعوها) وفيها هذان البيتان:

يــوم كنــا (ولا تســلْ كيــف كنــا)	**نتهــادى مــن الهــوى مــا نشــاءُ**
وعلينــا مــن العَفــافِ رقيــبٌ	**تَعبــتْ في مراســهِ الأهــــواءُ**

وقد قال شاعر قديم الأبيات الآتية وهي في الجزء الرابع من (طبقات الشافعية الكبرى) غير منسوبة إلى أحد:

ما على عاشقٍ رأى الحبَّ [22] مختا (م)	**لاً كغصــنِ الأراكِ يَحْمِــلُ بــدراً**
فدنا نحـــوه يُقبّـــلِ خـــدَّيْ (م)	**هِ غرامــــــــاً بــه ويلثِــمُ ثَغرا**
وعليــه مــن العفــــاف رقيــبٌ	**لا يــداني في سنــة الحــب غــدرا**

وهذه الأبيات لم تر في ذلك الوقت في غير (الطبقات) ولم تكن المطبعة– وشوقي ناشيء أو شاب– قد أظهرتْ ذلك الكتاب. فهل قرأها شوقي في الطبقات المخطوطة؟ وهل كان يطالع مثل هذه المصنفات في حداثة سنه أو رآها في كتاب مطبوع غير الطبقات أم هذا توارد الخواطر؟

أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري يقول في كتاب الصناعتين: ((قد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يُلِمَّ به [23] ، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر، وهذا أمر عرفته من نفسي فلست أمتري فيه، وذلك أني عملت شيئاً في صفة النساء:

سفرنَ بدوراً وانتقبْنَ أهلَّة: وظننت أني سبقت إلى جمع هذين التشبيهين في نصف بيت إلى أن وجدته بعينه لبعض البغداديين فكثر تعجبي، وعزمت على ألا أحكم على المتأخر

بالسرق من المتقدم حكماً حتماً.

قلت: والبغدادي هذا هو أبو القاسم الزاهي، وقد روى الثعالبي له في: (خاص الخاص) و (الإيجاز والإعجاز) هذين البيتين [24]، وقال أمير الطائفة طرائفه وأحسن شعره قوله في

سفـرْن بـدوراً وانتقـينَ أهلَّـةً ومِسْـنَ غصونـاً والتفتن جـآذرا [25]

وأطلعْـنَ في الأجيـاد بالـدرِّ أنجمـاً جعلـنَ لحبَّـاتِ القلـوبِ ضَرائـرا

وفي شرح المقامات للشريشي: «سئل المتنبي عن اتفاقات الخواطر، فقال: الشعر ميدان والشعراء فرسان، فربما اتفق توارد الخواطر، كما قد يقع الحافر على الحافر»

ولقد صدق المتنبي وما كذب، فهناك حقاً توارد الخواطر وهناك – وعلم هذا عند أبي الطيب – غارات الشاعر... وقد قال الإمام المرزباني في (الموشح) : «وكان الأخطل [26] يقول: نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة...»

الياء في هذا الاسم (شوقي) هي للنسبة أو الإضافة – كما يسميها صاحب (الكتاب) – وهي هدية أو بلية تركية. ومثل شوقي، عدلي، رشدي، صدقي، حلمي، حقي، حمدي، حسني، سري، سعدي، فتحي، شكري، فهمي، فوزي، فخري، فكري، وصفي

والترك الذين أتحفوا العربية بمثل هذه البلية هم «جيل من الناس» كما قال الصحاح والجمع أتراك

التزوُّج بالغربيّات:

تحريمه بفتوى وقانون:

هلاك [27] الشيوخ والشبان منا معشر المصريين على التزوج بالغربيات من أجل أن نهدم (قاصدين أو غير قاصدين بُلْهاً أو متفلسفين) الأسرة المصرية، بل الأمة المصرية – أجبر على كتب هذه السطور: قال **الله** تعالى: ﴿**اليومَ أُحلَّ لكمْ الطيِّباتُ، وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حلٌّ لكم، وطعامُكُمْ حلٌّ لهم، والمحصناتُ من المؤمناتِ والمحصناتُ منَ الذين أوتوا الكتابَ من قبلكُمْ إذا آتيتموهن أجورهن محصنينَ غيرَ مسافحين ولا مُتَّخذي أخدانٍ** [28] **ومن يكفر بالإيمان فقد حَبطَ عملُه، وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ (المائدة: 5) صدق **الله** العظيم، وقول **الله** بين، وظاهره طوع لأئمة نكاح الكتابية: اليهودية والنصرانية. بيد أن لنزول الآيات أسباباً يوردها المفسرون، وقد يكون المغزى في آية غير ما يلوح أول وهلة. والصحابة والتابعون هم أدرى بكتاب **الله** ومراميه من تابعي التابعين

ومن مجتهدين مولدين محدثين (وللمجتهد فضلٌ وقدرٌ وأجر) فقد جاء في (مفاتيح الغيب) :

«كان ابن عمر (رضي **الله** عنهما) لا يرى التزوج بالذمية، ويحتج بقوله: (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) ويقول: لا أعلم شركاً أعظمَ من قولها: (إن ربها عيسى) ومن قال بهذا القول أجاب عن التمسك بقوله تعالى: ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب**﴾ (المائدة: 5) بوجوه (الأول) : إن المراد الذين آمنوا منهم، فإنه كان يحتمل أن يخطر ببال بعضهم أن اليهودية إذا آمنت فهل يجوز للمسلم أن يتزوج بها أم لا؟ فبين تعالى بهذه الآية جواز ذلك. (الثاني) : روى عن عطاء أنه قال: إنما رخص **الله** تعالى في التزوج في ذلك الوقت لأنه كان في المسلمات قلة، وأما الآن ففيهن الكثيرة العظيمة، فلا جرم زالت الرخصة. (الثالث) : الآيات الدالة على وجوب المباعدة من الكفار كقوله ﴿**لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء**﴾ (الممتحنة: 1) ، وقوله: ﴿**لا تتخذوا بطانةً من دونكم**﴾ (آل عمران: 118) ، ولأن عند حصول الزوجية ربما قويت المحبة، ويصير ذلك سبيلاً لميل الزوج إلى دينها، وكل ذلك إلقاء للنفس في الضرر من غير حاجة. (الرابع) : قوله تعالى في خاتمة هذه الآيات: ﴿**ومن يكفرْ بالإيمان فقد حَبِطَ عملُه، وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ (المائدة: 5) وهذا من أعظم المنفرات عن التزوج بالكافرة، فلو كان المراد بقوله تعالى: ﴿**والمُحْصَناتُ من الذين أوتوا الكتابَ من قبلكم**﴾ (المائدة: 5) إباحة التزوج بالكتابية لكان ذكر هذه الآيات عقيبها كالتناقض، وهو غير جائز»

وروى محمد بن جرير هذا الخبر معنعنا: «من نساء أهل الكتب من يحل لنا، ومنهم من لا يحل لنا، ثم قرأ: ﴿**قاتلوا الذينَ لا يؤمنونَ بالله واليوم الآخر، ولا يُحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولَه، ولا يدينون دينَ الحقِّ من الذين أوتَوا الكتَبَ حتى يُعطوا الجزية**﴾ (التوبة: 29) فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤه، ومن لم يعط الجزية لم يحل لنا نساؤه»

فهذا الخبر يحل نكاح النصرانية المصرية (القبطية العربية) لا النصرانية الغربية الأوروبية، الأمريكية، «وحنانيك» كما قال الشاعر وجاء في مثل. وفصل الخطاب في هذا الباب عندي وعند كل مصري (مسلم أو قبطي) حريص على وقاية المصرية وصونها ونجاتها– وهو خطة الفاروق – رضي **الله** عنه – فقد جاء في (جامع البيان) :

حدَّثنا شهر بن حوشب قال: سمعت عبد**الله** بن عباس يقول: نهى رسول **الله** (صلى **الله** عليه وسلم) عن أصناف النساء – إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات – وحرَّم كل ذات دين غير الإسلام. وقال **الله** (تعالى ذكره) ﴿**ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله**﴾ (المائدة: 5) ، وقد تزوج طلحة بن عبيد **الله** يهودية، وتزوج حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر بن الخطاب (رضي **الله** عنه) غضباً شديداً حتى هم بأن يسطو عليهما، فقالا: نحن نطلق يا أمير المؤمنين، ولا تغضب، فقال: لئن حل طلاقهن، لقد حل نكاحهن ولكن انتزعهنَّ منكم صَغَرةٍ قمأة» (29)

إن هذا الشر، شر نكاح الغربيات قد اشتد واستفحل بل استأسد، فإذا لم يدرك الناس في مصر رجال الدين والدنيا وشيخ الإسلام ومفتيه وهيئة كبار العلماء، بالدواء الناجع بالفتوى المحرمة والقانون المانع، دارئين بذلك هذا البلاء، هذه الداهية الدهياء، هذا التزوج بالغريبة – فحولق (30) (أيها المصري) واسترجع (31) ، واقرأ الفاتحة (على الأسرة) ، وقل السلام على الأمة!

وإني في هذا المقام أذكر عاملاً بقول الله: ﴿**وذكِّرْ فإن الذكرى تنفعُ المؤمنين**﴾ (الذاريات: 55) رئيس الدولة وشيخ الإسلام بأن (موسوليني) الطلياني و (هتلر) الجرماني قد سارا سيرة الفاروق في التحريم. فحرم الأول على نسائه الأحبوش أو الحبشان، وحرم الثاني بنات (32) يهود. ومالهما في الناس لائم. وحري بمن امتلّ ملة (الفاروق) – ومن أعرف بدين الله من عمر؟ – أن يستن بسنته، وينقذ من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة بني أمته، والله يقول: ﴿**إنا لا نضيعُ أجرَ المصْلِحين**﴾ (الأعراف: 170) ﴿**إنا لا نُضيع أجرَ من أحسنَ عملاً**﴾ (الكهف: 30)

اللهم إني قد بلغت في (الرسالة) الإسلامية، العربية، وقلت، وذكرت. اللهم، اشهد

أقوال في الزكاة مهمة لأئمة:

أراجع من أجل الطبعة الثانية لكتابي: (الإسلام الصحيح) مؤلفات القوم، فأجد في (أعلام الموقعين عن رب العالمين، وفي مفاتيح الغيب، وفي المحلَّى) هذه الأقوال العظيمة المهمة في الزكاة والمعونة. وهي أقوال لا تسأل راويها تفسيراً ولا تفصيلاً؛ إنها تشرح نفسها وتعلنُ أمرَها وتذكرُ وتُنذرُ، بل تكاد تنطق بالحق مصونة مثل الأناس الناطقة. وقد رأيت أن أتعجل نشرها في (رسالتنا) الإسلامية، والسبق من دأب (الرسالة) ومن دأبها تعجيل الخير.

- 1 -

قال الإمام أبو عبد الله محمد المعروف بابن قيِّم الجوزية في (أعلام الموقعين عن رب العالمين) : أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أسقط القطع عن السارق في عام المجاعة. قال السعدي: حدثنا هارون بن إسماعيل الحراز: حدثنا علي بن المبارك حدثنا يحيى بن أبي كثير: حدثني حسان بن زاهر أن ابن جدير حدثه عن عمر قال: لا تقطع اليد في عذق ولا عام سنة. قال السعدي: سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث، فقال: العذق النخلة، وعام سنة المجاعة. فقلت لأحمد: نقول به؟ فقال: إي لعمري.

قلت: إن سرق في مجاعة لا تقطعه؟

فقال: لا. إذا حملته الحاجة على ذلك، والناس في مجاعة وشدة. وقد وافق أحمد على

سقوط القطع في المجاعة الأوزاعي، وهذا محض القياس ومقتضى قواعد الشرع؛ فإن السنةَ إذا كانت سنةَ مجاعةٍ وشدة، غلب على الناس الحاجة والضرورة، فلا يكاد يسلم السارق من ضرورة تدعوه إلى ما يسد رمقه، ويجب على صاحب المال بذل ذلك إما بالثمن أو مجاناً على الخلاف في ذلك. والصحيح وجوب بذله مجاناً لوجوب المساواة، وإحياء النفوس مع القدرة على ذلك الإيثار بالفضل مع ضرورة المحتاج

قلت: قد دُرِئ الحدُّ عن السارق في غير المجاعة وفي غير السنة، ففي (سيرة عمر بن عبد العزيز) للإمام أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي:

«.... حدثنا زياد بن أنعم الالهاني عن عمر بن عبد العزيز أنه أُتي إليه بسارق، فشكا إليه الحاجة، فعذره وأمر له بنحو عشرة دراهم [(33)] والمثل يقول: «الخلة تدعو إلى السلة «والخلة الفقر، والسلة السرقة، فقال العلامة الميداني: ويجوز أن يراد بالسلة سل السيوف.....!

قال الإمام محمد فخر الدين الرازي المعروف بخطيب الري في (مفاتيح الغيب) وهو تفسيره الكبير الشهير:

1. أن النفس الناطقة لها قوتان: نظرية وعملية، فالقوة النظرية كما لها في التعظيم لأمر الله، والقوة العملية كما لها في الشفقة على خلق الله، فأوجب الله الزكاة ليحصل لجوهر الروحِ هذا الكمال، وهو اتصافه بكونه محسناً إلى الخلق ساعياً، في إيصال الخيرات إليهم دافعاً للآفات عنهم.

- 2 -

2. إن الخلق إذا عاملوا الإنسان كونه ساعياً في إيصال الخيرات إليهم وفي دفع الآفات عنهم – أحبوه بالطبع، ومالت نفوسهم إليه– لا محالة– على ما قال عليه الصلاة والسلام: (جُبلتْ النفوسُ على حبٍّ من أحسنَ إليها وبغض من أساء إليها) فالفقراء إذا علموا أن الرجل الغني يصرف إليهم طائفة من ماله، وأنه كلما كان ماله أكثر، كان الذي يصرفه إليهم من المال أكثر – أمدوه بالدعاء والهمة. وللقلوب آثار، وللأرواح حرارة، فصارت تلك الدعوات سبباً لبقاء الإنسان في الخير والخصب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾ (الرعد: 48) ، وبقوله عليه الصلاة والسلام: (حصنوا أموالكم بالزكاة) [(34)] .

3. إن المال سمي مالاً لكثرة ميل كل أحد إليه فهو غاد ورائح، وهو سريع الزوال مشرف على التفرق، فما دام يبقى في يده كان كالمشرف على الهلاك والتفرق، فإذا أنفقه الإنسان في وجوه البر والخير والمصالح بقي بقاء لا يمكن زواله، فإنه يوجب المدح الدائم في الدنيا والثواب في الدائم في الآخرة.

وسمعت أحداً يقول: الإنسان لا يقدر أن يذهب بذهبه إلى القبر، وإلى القيامة.

4. إن إيجاب الزكاة يوجب حصول الألف بين المسلمين وزوال الحقد والحسد عنهم، وكل ذلك من المهمات.

5. إن الأغنياء لو لم يقوموا بإصلاح مهمات الفقراء فربما حملتهم شدة الحاجة والمسكنة على الالتحاق بأعداء المسلمين، وعلى الإقدام على الأفعال المنكرة كالسرقة وغيرها

- 3 -

قال الإمام ابن حزم في المحلى

فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات ولا فيء سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم يأكلون بما من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنِهمْ من المطر والشمس وعيون المارة.

قال عمر بن الخطاب (رضي **الله** عنه) لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين.

وعن ابن عمر أنه قال: في مالِكَ حقٌّ سوى الزكاة.

وصحَّ عن الشعبي ومجاهد وطاوس كلهم يقول: في المال حق سوى الزكاة.

ويقولون: من عطش فخاف الموت، ففرض عليه أن يأخذ الماء حيث وجده وأن يقاتل عليه.

فأي فرق بين ما أباحوا له من القتال على ما يدفع به عن نفسه، الموت من العطش، وبين ما منعوه منه من القتال عن نفسه فيما يدفع به عنها الموت من الجوع والعري؟ ، وهذا خلاف للإجماع وللقرآن والسنن وللقياس.

ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو ذمي، لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع، فإن كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة أو إلى لحم الخنزير، وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قتل فعلى قاتله القود، وإن قتل المانع فإلى لعنة **الله**، لأنه منع حقا. وهو طائفة باغية. قال تعالى: ﴿**فإنْ بغتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمر الله**﴾ (الحجرات: 9) ، ومانع الحق باغ على أخيه الذي له الحق، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق مانع الزكاة.

تلكم أقوال الإسلامية عربية بينة. وأقول في هذا المقام وفي الختام: إنه من لم يجب داعي **الله** وهدي (الكتاب) ، وشرعة سيد الأنبياء والمرسلين – وفي الوقت فسحة – فليرتقب طلعة التنين (35) وقسمة لينين.......... !!!

الهوامش:

1. مجلة الرسالة، ع: 253،9\5\771، 1938.
2. التهاويل: زينة التصاوير والنقوش والوشي، واحدها تهويل. والتهاويل الألوان المختلفة من الأحمر والأصفر. (اللسان) . هولت المرأة بحليها وزينتها إذ راعت الناظر إليها (الفائق)
3. عبدة بن الطبيب، وصدر البيت: (فيها الدجاجُ وفيها الأسدُ مُخْدَرةٌ) قال الأنباري: فيها الأسد مصورة. ويروي فيها الذئاب، وبعد البيت:

فــي كعبةٍ شــادَها بــانٍ وَزيَّنها   فيهــا ذُبالٌ يُضيءُ الليــلَ مفْتولُ

4. فلسطين من أجناد الشام في النهاية: «الشام خمسة أجناد: فلسطين والأردن، ودمشق، وحمص، وقنسرين، كل واحد منها يسمى جنداً أي المقيمين بها من المسلمين المقاتلين» والشام من غزة إلى الفرات طولاً. وقد مزق المغيرون هذا الإقليم العربي أي تمزيق! مزق الله ملكهم.
5. استخلف هشام _ كما قال الطبري_ سنة (105) وتوفي سنة (125)
6. أبو نصر خواشاذة خازن عضد الدولة قال: طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها ومايجاورها فكان ذلك في مدينة شيراز (تاريخ بغداد)
7. كانت شجرة من الفضة وزنها (500) ألف درهم عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها (تاريخ بغداد)
8. شاخات: رفارف
9. المطرد من الرمح ما بين الجبة إلى المالية، والجبة من السنان ما دخل فيه الرمح
10. ناروذ: لفظ فارسي وهو في لغتهم معنى القتال، وجولان الخيل في الميدان، وفي اللغة الجديدة ناورد جنك، وجولاناسب. وبالمعنى الثاني استعمله المولدون وغيرهم (شفاء الغليل)
11. الخبب: السرعة وقيل هو مثل الرمل، ورمل هرول، والتريب العدودون اسراع، قرب الفرس إذغ رفع يديه معا ووضعهما معا
12. مولده في سنة (573) وتوفي سنة (639) خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر بن أيوب، ثم خدم بعده لولده الملك المعظم عيسى بن أبي بكر، وشهد معه مصافات عدة مع الفرنج لما نازلوا ثغر دمياط، ولم يزل معه إلى أن توفي وملك بعده الملك ناصر دواود فأجراه على جامكيته– جرايته – وفوض إليه رياسة الطب الخ (عيون الأنباء)

13. الليق– بالكسر شيء أسود يجعل في الكحل. قال الزمخشري، وهو بعض أخلاطه التاج
14. إشارة إلى القول القرآني الكريم» وتلك الأيام نداولها بين الناس» (آل عمران: 140)
15. دار الندوة مكان بمكة كانوا يجتمعون فيه
16. هوة دريدية – إشارة إلى قول ابن دريد في مقصورته:

إنَّ القضاءَ قاذفي في هُوَّةٍ ... لا تَسْتَبِلُّ نفسُ من فيها هوى

ومثل هذا التعبير قولهم: ليلة نابغية – إشارة إلى قول النابغة:

كليني لهم يا أميمةُ ناصبٍ ... وليلٍ أقاسيهُ بطيءِ الكواكبِ

17. اللوح المحفوظ وهو أم الكتاب
18. قال بعضهم أباح أهل الحرمين الغناء وحرموا النبيذ، وأباح أهل العراق النبيذ وحرموا الغناء، فأوجدوا لنا السبيل إلى الرخصة فيهما عند اختلافهما إلى أن يقع الاتفاق.
19. الدوكاه والعشاق: نغمان. وجدت في نزهة الجليس للعباس ابن علي المكي هذا: «أنغام العرب أصلها فارسية وهي ستة كالهندية: الراست والدكاه والسيكاه والجهاركاه والبنجكاه وثوروز الصباح.
20. في الحياء للغزالي: ينبغي أن يمنع من الضرب بالشاهين في معسكر الغزاة فإن سوطه مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة، ويشوق إلى أهل الوطن، ويورث الفتور في القتال وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب. فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحركة المشجعة، فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتغيير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص
21. مجلة الرسالة، ع: 263، 18\5\1938م، السنة السادسة، ص: 1166.
22. الحب: المحبوب
23. ألم به: عرفه
24. وروى الثعالبي البيت الأول في كتابه (أسرار العربية) منسوبا إلى الزاهي. وروى النويري البيتين في (نهاية الارب) ونسبهما إلى أبي فراس الحمداني، وإنما هما لصاحبهما (الزاهي)
25. وللمتنبي من هذا الجنس:

بدتْ قَمَراً، ومالتْ خُوطَ بانٍ ... وفاحتْ عنبراً ورنتْ غزالا

وللثعالبي:

رنا ظبياً، وغنَّى عندليبا ... ولاح شقائقاً، ومشى قضيبا

26.اسمه غوث بن غياث

27.هالك على الشيْ هلاكا إذا اشتد حرصه وشرهه

28.متخذي أخدان: صدائق، والخدن يقع في الذكر والأنثى (الكشاف)

29.الصغرة، جمع صاغر وهو الراضي بالذل، وقماء: جمع قميء، وهو الذليل الصاغر

30.حولق: قل لا حول ولا قوة إلا بالله

31.استرجع: قل إنا لله وإنا إليه راجعون

32.بنات بفتح التاء وكسرها

33.في ليلة من ليالي الدهر– كان يسميها العالم الأديب الكبير محمد عبد الغني حسن– في القاهرة «أدام الله عمرانها بالمسلمين «– كما يقول ابن خلدون وهو قولنا ودعاؤنا في كل حين – في منزل العلامة الأستاذ الكبير إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور والمؤلفات المشهورة ومحرر المقتطف اليوم – رويت هذا الخبر «والحديث شجون «فسر به الأستاذ وصحبه من الفضلاء الحاضرين، وسألت عن مظنه، فقلت نقلته في أوراقي، ولا أتذكرها في هذا الوقت. والخبر في الكتاب المذكور في المتن في الصفحة (79) . مطبعة المؤيد.

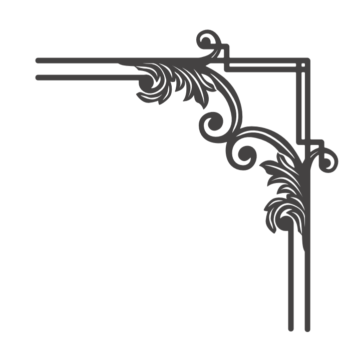
34.في مجموعة (النهج) هذا القول: سوسوا إيمانكم بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا مواج البلاء بالدعاء.

وفيه هذا القول: استنزلوا الرزق بالصدقة. وفي شرحه لابن أبي الحديد: جاء في الحديث المرفوع، وقيل أنه موقوف على عثمان: (تاجروا الله بالصدقة فربحوا) وكان يقال: الصدقة صداق الجنة، وفي الحديث المرفوع: ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على مخلفيه. وعنه (صلى الله عليه وسلم) : ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً إلا كان في حفظ الله ما دام منه رقعة.

وقال عمر بن عبد العزيز: الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه.

(قلت) : حسب هذه الأقوال المنسوبة إلى النبي وإلى علي أن تقولها إسلامية، وأن يؤيد معانيها الكتاب.

35.التنين في الأصل – كما سطروا – ضرب من الحيات كأكبر ما يكون منها، وفي فمه أنياب مثل أسنة الرماح، وهو كالنخلة السحوق، أحمر العينين مثل الدم، واسع الفم والجوف، براق العينين، يخافه حيوان البر والبحر، إذا تحرك يموج البحر لشدة قوته. روي عن بعضهم أنه رأى تنيناً طوله نحو فرسخين، ولونه مثل لون النمر، ورأسه كرأس الإنسان لكنه كالتل العظيم، وأذناه طويلتان وعيناه مدورتان كبيرتان جدا.....!



الفصل السادس

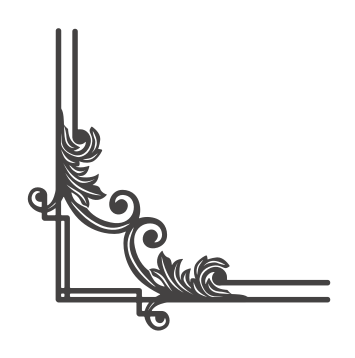
النشاشيبي في عيون الآخرين

- مصاب العرب والعربية
  للدكتور عبد الوهاب عزام بك.

- محمد إسعاف النشاشيبي مدرسة أدبية
  للدكتور أحمد فؤاد الأهواني.

- إسعاف النشاشيبي
  للأستاذ أحمد لطفي السيد.

- وا أسفاه مات النشاشيبي
  للأستاذ أحمد حسن الزيات.



مصاب العرب والعربية

للدكتور عبد الوهاب عزام بك:

روعت الأمة العربية ليلة الخميس حادي عشر ربيع الأول بنعي علم من أعلام لغة العرب، وأديب نابغ من أدبائها، وكاتب مبدع من كتابها. فجعت أمة العرب في ابن بار منحها قلبه ولسانه وقلمه عشرات السنين، فما حلَّ بها من خطب، أو حَزَبَها أمرٌ إلا تصدى له ينصرُ أمته، ويرمي عدوها بنيران من الكلم، يرمي بها عن قلبه ولسانه وقلمه. وما اتهم العرب متهم، أو ازدرى تاريخهم مزدر، أو تجنى على نعتهم متجن، إلا انبرى يشيد بالعرب وتاريخ العرب ولغة العرب دفاع ذي الحفاظ الحر العارف الثبت. وما كتب كاتب فجار عن القصد في كلمة من العربية أو قاعدة من قواعدها أو خطأ في رواية من الشعر أو النثر إلا سارع يرده إلى الصواب، ويقيمه على المنهاج. وهو في كل هذا لا يدَّعي ولا يزهي، ولا يجوز ولا يفخر، بل كثيراً ما كان يخفي نفسه بأسماء يستعيرها، وإن دل عليه أسلوبه، ونادت عليه طريقته.

وما ضم ناديه جماعة من الأدباء، إلا أفاض في حديثه، ودل على تمكنه في الأدب وسعة روايته، وقلَّ أن ينصرف جليسه إلا بجديد يستفيده في اللغة أو الأدب.

ما أحسب القارىء إلا قد أيقن أنى عنيت مدره العربية، الذائد عنها، والمجاهد لها محمد إسعاف النشاشيبي رحمه الله رحمة واسعة.

فمن شاء فليقرأ كلمته عن اللغة العربية التي نشرها قبل عشرين عاماً، ومن شاء فليقرأ كلمته عن شاعرنا شوقي وكلمته عن المعري، وخطبته عن صلاح الدين في ذكرى معركة حطين. ومن شاء فليقرأ غير هذه من آثاره ليعرف أي قلب كبير فجع به العرب، وأي قلم فياض صوال حرمته العرب. وأي مدد فقدته الأمة.

وما عهدُ القراء بعيد بهذه النُّقل التي والى نَشْرَها في مجلة الرسالة منذ سنين، فَعرَّف بطرف من تاريخنا، ونوادر من أدبنا، وغرائب من سيرنا. فلما ثارت الثائرة في فلسطين، رأينا نُقله في آيات الجهاد، وأخبار المجاهدين لا ندري أجمعها بديهة أم كان لهذا اليوم أعدها. ولقد مات – رحمه الله – وهو ينشر هذه الكلمات تثبيتاً للمجاهدين وتوهيناً للباعثين.

وكان، طيَّب الله ثراه، نسيج وحده، في كتابته وخطابته لا يتقبل أحداً ولا يشبهه أحد. إنما كان صورة نفسه، وترجمان فطرته، ووحي نبوغه وعبقريته.

وحسب الإنسان أن يكون صورة متميزة، ونجزة مستقلة وأكثر الناس كما قال أبو

الطيب:

في الناس أمثلة تدور حياتها كمماتها ومماتها كحياتها

وكان محمد إسعاف، طاب مثواه، خُلقاً من الأدب والمودة والوفاء، يحرص على أصدقائه ويبالغ في إكرامهم والاحتفاء بهم، وكان إلى ذلك أبياً متجبراً ثائراً إن سيم خسف، أو عرض أحد لكرامته، أو توهم أن أحداً يحاول الازدراء به. هنالك يتجلى العربي الأبي فيما ورث من أخلاق العرب، وما أشربته نفسه من تاريخ العرب وأدبهم.

وكان، رحمه الله، يحرص في بلده أن يلقى كل أديب يمر به، ويرى فرضاً عليه أن يحتفى به، ويؤنسه ويدعوه إلى داره. وكم كانت داره ندوة الأدباء ومجمع العلماء. وقد قال فيها بعض أصدقائه: (ولهذا شدتها على الجبل وفي ملتقى السبل، علماً على علم، وراية للمروءة والكرم)

لقد عظمت فجيعة إسعاف على كل من عرفه حق المعرفة، وتبين الفراغ الذي خلفه هذا العربي العبقري. وإن مصيبة العرب كلهم لكبيرة، وإن خسارة اللغة والأدب بفقده لفادحة، ولكن الرجل ترك فؤاده ولسانه وقلمه في هذه الآثار الخافقة النابضة التي يقرأ فيها كل عربي وكل متأدب بأدب العرب، علم إسعاف، وأدب إسعاف، وحماسة إسعاف، وجهاده لقومه.

محمد إسعاف النشاشيبي مدرسة أدبية

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني:

لو شئت أن ترى الأديب الذي يعد بحق عنواناً على «الأديب» لكان عليك أن تسعى إلى لقاء النشاشيبي في مجلسه، ولكنه مات، فاختفت بموته صورة فذة فريدة لن يظفر التاريخ بمثلها، وقد تجد النماذج لكثير من أدبائنا البارزين، وصوراً تحاكي أساليبهم وطرائفهم وفكرهم، ولكنك لن تعثر مع التنقيب الشديد، على صورة تشبه إسعاف، مع كثرة تلاميذه واحتفال مجلسه بالناس، واطلاع القراء على الإسلام الصحيح من كتبه، وشوقي وحافظ وغيره من خطبه، ونقل الأديب مما كان يتابع نشره في الرسالة. ذلك لأنه أعلى من المحاكاة، وأسمى من التقليد.

ومع ذلك فهو الأديب الذي كلما تمثلته، تمثلت الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام كيف كان، وكيف ينبغي أن يكون فقد قيل: «إن الأدب أن تجمع من كل شيء بطرف»، وكان هذا شأن إسعاف النشاشيبي: يحدثك في الفقه والشريعة، وآراء المعتزلة وعلماء الكلام،

ونظريات الفلاسفة والحكماء، وطرائف الكتاب ونوادر الشعراء، مع امتلاك ناصية العربية وهي كما تعلم من أوسع اللغات، وإلمام بالأدب والعلم والفلسفة في أوروبا الحديثة إلماماً يدل على طول الباع وعظيم المنزلة.

فإن قلت: عندنا كثير من الأدباء يجمعون بين هذه المعارف، ويأخذون من كل شيء بطرف. قلت: ولكنك لم تحظ بالاستماع إلى إسعاف، فهو في مجلسه وحديثه غيره في كتبه ومقالاته. والفرق بين هذا وذاك هو الفرق بين المقروء والمسموع، بين اللفظة على الورق جثة هامدة، والعبارة وقد خرجت من فمه تمتليء بالحياة، وتنفذ إلى القلوب، وتستقر في الأسماع.

وهل كان الأدب في القديم إلا في القديم إلا مجالس وأسواقاً؟ وهو يفسد حين يؤخذ من الكتب ويحفظه المتأدبون كما تفعل الببغاء.

يروى أن أفلاطون لم يدون دروسه في الأكاديمية، لأن العلم عنده لا يكون إلا سماعاً أو حواراً.

عرفت إسعافاً منذ بضع سنين في مجلسه بالكونتنتال، فكان حلقة تضم صفوة الأدباء والشعراء وهو فيهم دار العقد، أو كأنه الشمس تحف به الكواكب. فإذا جاء ذكر محمد عليه السلام، قال إسعاف: **الله** أكبر نبي الإسلام. كان يتغنى بهذا الدين، ويترنم باسم الرسول.

وفي ذلك ألف كتابه «الإسلام الصحيح «. نفذت طبعته، وكان يفكر في إعادتها بعد إضافة شواهد وتعليقات جديدة من خمسمائة مرجع. ولا يهولنك هذا الرقم، فهو حقاً عظيم الإحاطة واسع الاطلاع.

أراد أن يهدي إليَّ هذا الكتاب، ولكنه لم يكن يملك منه نسخة واحدة. وسعيت أن أجد منه نسخة فلم أعثر. وسمع الأستاذ عادل زعيتر بطلبي فقال عندي نسختان فأرسل يطلب من فلسطين واحدة هي الآن في حوزتي. تقرأ في استهلال الكتاب «الإسلام هو دين الحق (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) ومحمد هو خير الخلق. وهذا الكتاب، وهذا الأثر، وهذا تاريخ البشر. فاقرأ كتاب كل دين، وانظر أثر كل عظيم، وفتش صحف التاريخ. «واحكم إن كنت من الحاكمين».

وهذا كلام لا يجري به القلم أو ينطق به اللسان، بل هو صدى القلب، وقبس من نور اليقين ما كنت تسمع في مجلسه اعتزازاً ودفاعاً عن الإسلام الصحيح. فهو حلقة أو مدرسة سرت روحه في شباب الجيل.

طيب الله ثراه، وأدخله فسيح الجنات

إسعاف النشاشيبي

للأستاذ أحمد لطفي السيد:

اختار الله لجواره الأسبوع الماضي الكاتب الشهير إسعاف النشاشيبي زعيم الأسرة المعروفة في فلسطين منذ القرن التاسع الهجري إلى اليوم.

ارتقى – رحمه الله– إلى أعظم المناصب الحكومية في عهد الحكومتين العثمانية والحاضرة – بجده واجتهاده، فكان المفتش الأول للغة العربية في فلسطين – نظم المدارس وأصلح التعليم في هذا القطر الشقيق – ونشر علم العربية عالياً، تشهد بذلك مؤلفاته ومقالاته ذائعة الصيت في العالم العربي – وقد كان السيد إسعاف بك شديد الحنين لوطن أسرته الأول في مصر– فكان يزورها كلما سنحت له الفرصة – وهو فوق ذلك يؤلف فيها الكتب – ويحيي علماءها وشعراءها وزعماءها – ويتعرف إلى أحيائها وأمواتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا– وحادثة وقوفه بين يدي المغفور له سعد باشا معروفة مشهورة.

ونحن بهذه المناسبة نكشف لقراء الرسالة الغراء عن أصل هذه الأسرة المصرية الكريمة حتى تقر عين الصديق الراحل بكلمة وفاء صغيرة من أحد أبنائه المعترفين بفضله... يتصل أول هذه الأسرة بالشيخ المعتقد أحمد بن رجب النشاشيبي – سمى بذلك لأن أجداده كانوا يحترفون صناعة النشاب – وكان الشيخ أحمد المذكور من رجال السلطان الملك الظاهر جقمق – كان خازنداره الخاص في أيام إمارته الأولى في فجر القرن التاسع الهجري – وتوفي الشيخ أحمد المذكور على عهد المؤرخ الشهير ابن تغري بردي صاحب كتاب: (النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة) ، وقد وصفه بقوله: (الشيخ المعتقد أحمد بن النشاشيبي كان خيراً يحب العلماء الصالحين) ، وترك ابنه الأمير ناصر الدين محمد وهو غرة هذا البيت وواسطة هذا العقد وطراز هذه الحلية.

ولد في مصر سنة 821 هـ وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم في صغره، وجوَّده على أشهر علماء عصره، ثم اتصل كأبيه بخدمة الملك الظاهر جقمق. وفي سنة 875هـ اختاره الملك الأشرف قايتباي لوظيفة ناظر الحرمين الشريفين (القدس والخليل) ، فدام في هذه الوظيفة ما يقرب من الثمانية عشر عاماً، كانت كلها خيراً وبركة على القدس والخليل وأهلهما. وقد فصل العليمي في كتابه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل حكم هذا الأمير لتلك البلاد فقال: كانت أيامه كلها مواسم..... وناهيك بهذه الشهادة من شاهد عيان.

وحتى يكون القارئ على بينة من سر حنين المرحوم إسعاف بك لوطن أسرته الأول مصر نفصل له قليلاً من أخبار الأمير ناصر الدين في القدس وكيف استقرت فيها هذه

الأسرة المصرية الكريمة منذ خمسة قرون إلى الآن.... قال العليمي في حوادث 873 هـ: كثرت الفتن في القدس بن نائب السلطنة (حاكم القدس) دمرادش وناظر الحرمين الشريفين (القدس والخليل) برد بك التاجي، واشتد الخلاف بينهما وكثر القيل والقال، فأدى إلى انفصال الأخير عن نظر الحرمين الشريفين وعين السلطان قاتيباي الأمير ناصر الدين بن النشاشيبي أحد الخازندارية بالخدمة الشريفة (أحد رجال الديوان العالي كما هو متعارف اليوم) للكشف عن أوقاف الحرمين الشريفين بالقدس والخليل، وتحرير أمرهما وإصلاح ما فسد من نظامهما فحضر إلى القدس، وأصلح ما فسد من أيام برد بك التاجي وعمر المسجد الأقصى وصرف المعاليم (المرتبات) واستبشر الناس بالخير، وعد ذلك من بركة الأمير ناصر الدين، ثم توجه إلى مصر في آخر سنة 874هـ وفي سنة 875 هـ استقر الأمير المذكور في نظر الحرمين الشريفين، ودخل إلى القدس في يوم مشهود، وشرع في عمارة الأوقاف بهمة وشهامة، وحصل للأراضي المقدسة الجمال بوجوده وكان يكثر من مجالسة العلماء والفقهاء ويحسن إليهم بالبشر والقول. وفي سنة 577هـ شرع في عمارة الصخرة الشريفة، وانتهى العمل فيها في سنة 578 هـ وفي هذه السنة خلع عليه السلطان قايتباي وعلى القاضي شهاب الدين بن عبيسه ووهبهما ألف دينار وحضر الاثنان إلى القدس وعليهما خلعة السلطان فكان يوماً مشهودا....

وفي سنة 892هـ اشتد الغلاء بالقدس والخليل وساءت سيرة نائب السلطان خضر بك، وكان يناصره قاضي المالكية شرف الدين بن يحيى المغربي، فكثرت الشكاوي في حقهما، فعزل الأمير ناصر الدين القاضي بناء على أمر جاء من القاهرة، فلما كانت سنة 893 توجه خضر بك نائب السلطنة والأمير ناصر الدين ناظر الحرمين الشريفين إلى القاهرة ومثل كلاهما بين يدي السلطان، فعزر السلطان خضر بك، وأمر بعزله والتمس الأمير ناصر الدين السلطان إعفاءه من الخدمة، فتوقف السلطان، ولكن الأمير ناصر الدين ألح في طلب الاستعفاء، فأعفاه السلطان من الخدمة كارهاً لنزاهته وعفته واستقامته.

قال الشيخ العليمي: ودخلت سنة 892هـ والوظيفتان شاغرتان: النيابة والنظر قال: ثم عين السلطان دقماق في نظر الحرمين فكان بعكس سلفه ظالماً فاجراً.

قال السخاوي في كتابه الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، كان الأمير ناصر الدين بن النشاشيبي من أهل الخير والصلاح، حفظ القرآن الكريم وهو صغير وجوده على ابن كوزلبنا والزين طاهر وآخرين، وبعد أن ذكر خدماته في القدس والخليل قال: وصرفه السلطان قايتباى بدقماق. والعليمي يؤكد أن النشاشيبي هو الذي استعفى من تلقاء نفسه، وأن السلطان ألح عليه في البقاء في نظر الحرمين فرفض الخ. وصاحب الدار أدرى.

وبعد فهذه نبذة صغيرة عن أصل هذا الأمير الشهير، والكاتب النحرير، والحجة الثبت واللغوي الضليع عظيم القدس والخليل البلد المعلوم، وموطن القبر الموهوم الذي من أجله تقاتل الأخوان، كأنهما وحشان قروناً وأجيالاً، حتى اصطبغت الأراضي المقدسة بالدماء فشربتها شرب الهيم، ولم يغن فيها دعاء إبراهيم وهي اليوم كما كانت بالأمس وا اسفا، والفرق في الاسم فقط، فتلك حروب صليبية وهذه حروب صهيونية ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وا أسفاه مات النشاشيبي

للأستاذ أحمد حسن الزيات:

أهكذا، وفي أسرع من رجع النفس يسكت اللسان الذليق (البليغ، الفصيح)، ويسكن العصب الثائر، ويخمد الذهن المتوقد، ويقف الفؤاد الذكي، ويصبح النشاشيبي نعياً في الصحف، وخبراً في البلاد، وحديثاً في المجالس، لا يقول فنسمع، ولا يكتب فنقرأ.

أهكذا، وفي مثل ارتداد الطرف، يترك النشاشيبي قلمه سائلا بالمداد، وكتبه مهيأة للطبع ومجلسه مشتاقاً للسماع، ومجلته منتظرة (لنقل)، ويذهب إلى حيث لا يرجع ولا يكتب ولا يتحدث؟!

سبحانك يا رب! شعاع أرسلته ثم رددته، وروح بثثته ثم أعدته، وظل بسطته ثم قبضته، ولواء رفعته ثم خفضته، وبنو آدم العاجزون الضعاف لا يملكون أمام أمرك البادي وسرك المكنون إلا أن يشكروا على العطاء والأخذ، ويحمدوا على المحبوب والمكروه!

كنت ثالث ثلاثة استبقاهم الوفاء بجانب إسعاف في ساعاته الأخيرة، وكان الطبيب واقفاً يصف الدواء وينظم العلاج ويرشد الممرضة، وكان المريض جالساً في سريره حاضر الذهن حافل الخاطر يغالب انبهار النفس من الربو، ويجاذب العواد ما رق من الحديث: فهو يضع لسانه حيث شاء من نوادر اللغة، وطرائف الأدب، فينتقل من الكلام في (ليس غير) إلى الكلام في ترجمة (جوته) لقصيدة خلف الأحمر، حتى إذا سمع الطبيب يصف له البنسلين قطع الحديث وقال بلهجته المعروفة: أنا أكره البنسلين لأنه أنقذ تشرشل! فقلنا له: ونحن نحبه لأنه سينقذ أبا عبيدة! وكانت مظاهر العزم في حديث (أبي عبيدة) توسع في أنظارنا فسحة الأمل، وتصرف عن أذهاننا فكرة الخوف، فلم يدر في خلدنا أن المنية كانت مرنقة فوق سريره تنتظر أنفاسه المعدودة أن تنقضي، وألفاظه المسرودة أن تنفد، فلم يكد السامر ينفض والساهر ينام حتى ختمت على فمه المنون فسكت سكوت الأبد!.

وكان في القدس قد شيَّد قصره المنيف ليكون مثابة للأدباء ومجمعاً للأدب، ثم اقتنى مكتبة من أنفس الكتب وأندرها، وأقبل عليها وهو لا يزال في ربيع العمر فقتلها علماً وفهماً وتدقيقاً وتعليقاً واختياراً واستظهاراً، فلم يترك كتاباً مما أخرجته المطابع أو نسخته الأقلام في القديم والحديث إلا قرأه وعلق عليه واستفاد منه. ثم وقف بعد ذلك نفسه ووقته وجهده على دراسة الإسلام الصحيح في مصادره الأولى، وتحصيل اللغة وعلومها وآدابها من منابعها الصافية، وأعانه على ذلك قريحة سمحة، وبصيرة نيرة، وحافظة قوية، وذوق سليم، فكان آية من آيات **الله** في سعة الاطلاع، وكثرة الحفظ، وتقصي الأطراف، وتمحيص الحقائق.

فإذا جلس الناس في القدس أو في دمشق أو في القاهرة كان مجلسه ندوة علم وأدب وفكاهة، لا تذكر مسألة إلا كان له عنها جواب، ولا تُثار مشكلة إلا أشرق له فيها رأي، ولا تُروى حادثة إلا ورد له عليها مثل، ولا يحضرُ ندوتهُ أديبٌ مطلع إلا جلس فيها جلسة المستفيد، ثم كان في غير مكتبه ومجلسه يشارك في معارف فلسطين بعمله، وفي الثقافة العامة بكتبه، وفي المحافل الأدبية بخطبه، وفي المساعي الخيرية بماله.

كان النشاشيبي– جاد **الله** بالرحمة ثراه– رجلَ وحدِه في الأسلوب والخط والحديث والتحصيل، كان يكتب للعصبية والعقيدة أخلص **لله** فأخلص لقرآنه، وأولع بمحمد فأولع بلسانه.

وتحصيله عجب من العجيب لا تستطيع أن تذكر له كتاباً من كتب اللغة العربية لم يقرأه، ولا بيتا من شعر الفحول لم يحفظه، ولا خبراً من تاريخ العرب والإسلام لم يروه، ولا شيئا من قواعد اللغة ونوادر التركيب وطرائف الأمثال لم يعلمه، فهو من طراز أبي عبيدة والمبرد، ولذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقاً واختياراً وأمالي، ثم كان إلى كل أولئك متواضعَ النفس، فكهَ الأخلاق، لطيفَ الروح، نفَّاحَ اليد، عفيفَ اللسان، مأمونَ المغيب، لا يتعزز بحبه، ولا يطاولَ بمالِه، ولا يباهي بعمله، ولا يفخر بشيء مما يتمدَّح به الناس إلا بالانتساب إلى العرب والانتماء إلى محمد صلى **الله** عليه وسلم. إن النشاشيبي كان خاتم طبقة من الأدباء واللغويين المحققين لا يستطيع الزمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجود بمثله، فمن حق المحافظين على التراث الكريم، والمعتزين بالماضي العظيم، أن يطيلوا البكاء على فقده، وأن يرثوا لحال العروبة والعربية من بعده!.

الهوامش:

1. مجلة الرسالة، ع: 761، 2 فبراير، 1948م، 13.
2. مجلة الرسالة، 762، فبراير، 1948م، السنة السادسة عشرة، ص: 187-196.
3. مجلة الرسالة، ع: 762، 9 فبراير، 1948م، السنة السادسة عشرة، ص: 196-197.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

1. ابن عبد البر يوسف بن عبد البر النمري، جامع بيان العلم وفضله، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1978م) .
2. ابن عربي محمد بن علي بن محمد الحاتمي، الفتوحات المكية، (القاهرة: مطبعة بولاق، 127هـ) .
3. أبو عليان د. ياسر وآخرون، أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي (القدس: مركز الأبحاث الإسلامي، 1987م) .
4. الأسد، ناصر الدين،

- محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن، (القاهرة معهد الدراسات العربية، 1960م) .

5. – الاتجاهات الحديثة في فلسطين والأردن (القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، 1975م) .
6. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، (بيروت: دار القرآن الكريم، 1981م) .
7. البغدادي، أبو منصور، عبد القاهر بن طاهر، أصول الدين (استانبول، 1927م) .
8. الجندي، أنور، المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام، 1840 – 1940م، (القاهرة: مطبعة الرسالة، 1960م) .
9. حسن، محمد عبد الغني، تراجم عربية، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1968م) .
10. الحسيني، د. إسحاق موسى، – أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، 1987م) .
11. خليل السكاكيني، الأديب المجدد، (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية 1989م) .
12. الحنبلي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (القدس: مكتبة المحتسب، 1973م) .
13. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، البابي الحلبي، 1376هـ) .

14.الزركلي، خير الدين، الإعلام، (بيروت، دار العلم للملايين، ط7، 1986م) .
15.الزين، محمد حسين، الشيعة في التاريخ (بيروت، دار الآثار، 1975م) .
16.الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد، (القاهرة، مطبع المنار، 1913م) .
17.الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، (القاهرة: البابي الحلبي، 1967م) .
18.الشوكاني، محمد بن علي بن عبدالله، فتح القدير الجامع بين الرواية الدراية من التفسير، (القاهرة: الباب الحلبي، 1349هـ) .
19.الظهير، إحسان إلهي، الشيعة وآل البيت، (القاهرة، دار الاعتصام، 1986م) .
20.عبد الحميد، د. عرفان، دراسات في العقائد الإسلامية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1948م) .
21.العزاوي، د. نعمة رحيم، أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م) .
22.العربي، عبد المنعم صالح العلي، دفاع عن أبي هريرة، (بيروت: دار القلم، 1973م) .
23.العكبري، أبو محمد عبد الله بن محمد المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية (تبرين، 1371هـ) .
24.الفخر الرازي، محمد بن ضياء الدين عمر، مفاتيح الغيب، (القاهرة المطبعة الميرية، 1287هـ) .
25.فودة، د. محمد بسيوني، التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية، (القاهرة: مطبعة الأمانة، 1977م) .
26.القاضي، د. النعمان، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، (القاهرة: دار المعارف، و. ت) .
27.الكاظمي، محمد بن محمد مهدي، إحياء الشريعة في ضوء مذهب الشيعة، (بغداد: مطبعة المعارف، 1370هـ) .
28.الكافي، يوسف بن محمد، نقض إسلام النشاشيبي الصحيح بصريح الأدلة التي يفهمها الأعجمي والفصيح، (دمشق: مكتبة دمشق، 1304هـ) .
29.الملثم، البدوي، عرار شاعر الأردن، (عمان، 1958م) .
30.الموسوي، عبد الحسين شرف الدين، المراجعات، (صيدا: مطبعة العرفان، ط3، 1935م).
31.النشاشيبي، محمد إسعاف: الإسلام الصحيح، (بيروت: دار العودة، 1985م) .

32.البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي، (القدس، مطبعة بيت المقدس، 1931م) .

33.العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي، (القاهرة: مطبعة المعارف، 1928م) .

34.كلمة في اللغة العربية، (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1925م) .

35.كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه، (القدس: مطبعة دير الروم الأرثوذوكس، 1340هـ) .

36.ياغي: د. هاشم، حياة الأدب الفلسطيني الحديث، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط2، 1981م) .

ثانياً: الدوريات

1. مجلة المجمع العلمي العربي، (دمشق: ج2، مجلد 23، الأول من نيسان، 1948م) .
2. مجلة الرسالة، القاهرة، مجموعة أعداد.
3. مجلة المواكب، (الناصرة/ مجلة1، العددان 8، 7، تموز/ آب، 1984م) .
4. مجلة النفائس المصرية، (ج2، السنة الرابعة، آذار، 1912م) .
5. مجلة القلم الجديد، (عمان، العدد: 3، تشرين ثان، 1952م، ص: 28) .